الفصلُ الخامس

الحياة الاجتماعية لمدينة مرو في العهد السلجوقي

ضمت مرو عناصر جنسية متعددة أثناء العهد السلجوقي، وكان لكل عنصر أثره في الحياة الاجتماعية، ونذكر من أهم هذه العناصر:

١ - الترك

هو العنصر الذي تكونت منه السلطة الحاكمة في مرو خلال العصر السلجوقي، وقد زاد توافدهم وإقامتهم في المدينة في ذلك بشكل كبير ملحوظ[١] على الرغم من أن العنصر التركي لم يكن أكبر العناصر البشرية عددًا، إلا أن أهميته ترجع إلى أنهم أول هجرة حقيقية إلى الشرق الإسلامي، كما كان العنصر الذي تقلد أعلى المناصب وأسندت إليه كافة المناصب السياسية، ليس ذلك فحسب بل فتحوا الباب على مصراعيه لسيادة عنصرهم على الشرق[٢].

وينسب السلاجقة إلى واحدة من هذه القبائل التركية التي عرفت باسم الغز، الذين اضطروا بسبب ازدحام ديارهم وضيق مراعيهم أن ينزحوا من أقصى سهول التركستان إلى ما وراء النهر[٣] في موضع بينه وبين بخارى مسافة

---

(١) عطية القوصي: تاريخ الدولة العباسية ١٦٧ - ١٦٨.

(٢) د/ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٨ - ١٩.

(٣) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول ٨٧، بيروت ١٩٨٦م، الفخري: الآداب السلطانية والدول الإسلامية ٢٩٢، عبد الرحمن زكي: السيف في العالم الإسلامي ٦٨، القاهرة ١٩٥٧م، طه ندا: تاريخ الحكم التركي ٣٧.

عشرين فرسخًا[١].

وكانت مساكنهم في الشتاء في نور بخارى، وفي الصيف في صغد سمرقند[٢]، وقد أطلق على هذه القبيلة اسم السلاجقة نسبة إلى زعيمها سلجوق بن دقاق[٣]، وكان هؤلاء السلاجقة يمتازون بالشجاعة وكثرة العدد وإجادة المراوغة[٤]؛ مما جعل حكام المنطقة يستعينون بهم في حروبهم كالسامانيين الذين سمحوا لهم مقابل مساعدتهم أن يقيموا داخل حدود دولتهم، وأعطوا لهم مدينة جند مقرًا لهم[٥].

وقد أدى استقرار السلاجقة في بلدان الدولة الإسلامية إلى اعتناقهم الإسلام على المذهب السني[٦]، وقد ظل سلجوق يعمل على إعلاء شأن السلاجقة حتى توفي، فخلفه ابنه أرسلان الملقب بإسرائيل الذي سار على نهج أبيه في تقوية السلاجقة وإعلاء شأنهم حتى صاروا في عهد الغزنويين قوة يخشى بأسها[٧] حينئذ بدأ السلطان محمد الغزنوي يفتح عينيه على خطر السلاجقة الكامن على حدود بلاده وانتابته المخاوف فعول على محاربتهم والقضاء عليهم[٨]، وأراد أن يتبين بنفسه مدى قوة السلاجقة وعددهم

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٥٥، يوحنا أبكاريوس: قطف الزهور في تاريخ الدهور ١/ ١١٠، القاهرة ١٩٧٣م.

(٢) الراوندي: راحة الصدور ١٤٥.

(٣) سيد مهدي معين: تاريخ إيران ١٠٦.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٥٥.

(٥) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ٢٩- ٣٠.

(٦) ابن العبري: مختصر تاريخ الدول ٨٧.

(٧) عبد النعيم حسنين: السلاجقة ٢٢.

(٨) عباس إقبال: المرجع السابق ذكره ٣٠- ٣١.

فاجتمع بزعيمهم إسرائيل ولما تأكد له تعاظم قوتهم وكثافة عددهم أراد أن يكسر شوكتهم، فاعتقل زعيمهم وألقاه في السجن في قلعة كالنجر ببلاد الهند، وظل إسرائيل في السجن حتى مات[١].

كما رأى السلطان محمود أن يسمح للسلاجقة بالعيش داخل حدوده حتى يظلوا خاضعين لرقابته فأنزلهم في نواحي خراسان؛ ومن ثم كان انتقال السلاجقة إلى خراسان واستقرارهم بها بداية لمرحلة جديدة حيث أخذوا يتحينون الفرص للانقضاض على الدولة الغزنوية[٢]، وقد أتاحت الفرصة بموت السلطان محمود وأصبحوا قوة تهدد كيان الدولة الغزنوية في عهد ابنه السلطان مسعود وتمكنوا من اكتساح المشرق الإسلامي والقضاء على الدولة الغزنوية والسيطرة على كافة أملاكها[٣].

وكانت مرو واحدة من أهم هذه الممتلكات، وقد كثر توافد الأتراك السلاجقة وإغارتهم على المدينة أثناء حكم السلطان مسعود، ثم نجح جغري بك في الاستيلاء عليها؛ وأصبح بذلك السيد الفعلي على كل شمال خراسان[٤].

لم يؤثر العنصر التركي في مرو أثناء هذا العصر؛ لأنهم كانوا أهل بداوة وأقل تحضرًا من سكان المدينة الأصليين لكن صفاتهم العسكرية التي منحتهم إياها بيئتهم القبلية قد جعلتهم يتميزون بالقوة الجسدية، وتغلبت عليهم الصفات الحربية من فروسية وشجاعة وغيرها[٥]؛ مما جعلهم يستأثرون

---

(١) الراوندي: راحة الصدور ١٤٩- ١٥١، محمد الخضري: تاريخ الأمم الإسلامية ٤١٤- ٤١٥، أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية ٣١٤.

(٢) د/ عصام عبد الرءوف: الدول الإسلامية المستقلة ١٥٥.

(٣) الراوندي: المصدر السابق ذكره ١٥٧- ١٥٨، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٥- ٦.

(٤) فامبري: تاريخ بخارى ١٣٣.

(٥) محمد جمال الدين سرور: الحضارة الإسلامية في الشرق ١٦٩، أحمد أمين: ظهر الإسلام ١/ ١٩.

المناصب السياسية بالمدينة[١]، وأدى افتقار هذا العنصر للحضارة إلى انبهارهم بما وجدوه في المدينة من تقدم ومدنية جعلهم يحاكون أهل المدينة في الكثير من عاداتهم وتقاليدهم في كافة شئون حياتهم[٢].

ولقد مثلهم العنصر التركي في العهد السلجوقي الإرستقراطية السياسية الحاكمة بحكم سيطرتهم على كافة مقاليد الأمور، وجدير بالذكر أن هؤلاء الأتراك عاشوا في عزلة اجتماعية، فلم يندمجوا مع باقي العناصر السكانية وغلب عليهم طابع القسوة والغلظة في معاملاتهم للعناصر الأخرى، كما مارسوا أعمال الفساد والتخريب منذ قدومهم المدينة[٣]، وازداد خطرهم أواخر العهد السلجوقي بصفة خاصة عندما فقد سلاطين السلاجقة قوتهم، فكانوا من الضعف بحيث لم يتمكنوا من السيطرة على مماليك جنودهم[٤].

٢- الفرس

يمثل الفرس غالبية سكان مرو، وهم أهل البلاد الأصليون[٥]، وهم أهل حضارة عريقة، فقد ورثوا مدينة قديمة وطبعوا عليها ولهم قدرة كبيرة على تنظيم الحكم وكيفية زيادة الأموال، واهتموا بتشجيع العلم والعلماء[٦]، وظل الفرس محتفظين بجذورهم وأصولهم الفارسية القديمة فلم يختلطوا بالعناصر الجنسية المختلفة الموجودة في المدينة.

---

(١) د/ عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ١٧٥.

(٢) د/ عبد النعيم حسنين: المرجع السابق ذكره ١٧٦.

(٣) البيهقي: تاريخ البيهقي ٥٨١.

(٤) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ١١، رشيد الدين: جامع التواريخ م٢ جـ٥، ٦١- ٦٢.

(٥) اليعقوبي: البلدان ٢٧٦.

(٦) David Talbot Rice,islamic Art , New York,p .47

وينبغي أن نشير إلى محاولات الفرس المتكررة للسيطرة على السلطة وتكوين دول مستقلة، وكانت أولى هذه الدول المستقلة الدولة الظاهرية ثم الدولة السامانية التي قامت على أنقاض الصفاريين سنة ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م[١]، ورغم أنهم لم يحققوا انتصارًا على المسرح السياسي إلا أنهم حققوا التفوق في المجالين العقلي والإداري، وقد حرص سلاطين السلاجقة على إرضائهم وإشراكهم في تسيير أمور الحكم بالمدينة، فأسند إليهم بعض المناصب السياسية، كما كانوا يختارون من بينهم بعض الرؤساء والوزراء[٢].

وقد تميز الفرس بالأمانة والعفة والنزاهة والقناعة والصبر على الخدمة[٣] والنجدة وحسن السياسة والمقدرة العسكرية والمالية والإدارية والعلمية[٤].

٣- العرب

هو العنصر الذي قامت على أكتافه الدولة العربية الإسلامية بقيادة رسول الله ﷺ في المدينة، وبعد انتشار الإسلام في الجزيرة العربية حمل القادة المسلمون لواء الإسلام إلى البلدان المجاورة، ففتحوا العراق والشام وفارس وخراسان، وكان انتشارهم فيها تبعًا للضرورات السياسية والعسكرية، ثم تتابعت هجرة القبائل العربية إلى مرو بأعداد كبيرة[٥].

وبدأ الاستقرار الكامل للعرب في مرو في عهد أمير بن أحمر[٦]، وكانت

---

(١) رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي ٢٣، ترجمة محمد مرسي هنداوي دار الفكر العربي ١٩٤٧م.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٧٨.

(٣) الجاحظ: مناقب الترك ١٩.

(٤) القرماني: آثار الدول ١٤٥، البيهقي: تاريخ البيهقي ٢٣، ٣٩.

(٥) اليعقوبي: البلدان ٢٧٨.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان ٤٠٠، قدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة ٤٠٤.

أكثر القبائل العربية في مرو من قبيلة تميم من شمال شبه الجزيرة العربية وقبيلة بكر من ربيعة، وقبيلة الأزد من جنوب شبه الجزيرة، وقبائل قيس وخزاعة وقريش والأنصار من المدينة[١]، ومما ساعد على انتشار القبائل العربية في مرو أن أغلب الذين تولوا إمارة خراسان طوال عصر الراشدين والأمويين كانوا عربًا ثم أشرك العنصر الفارسي في الحكم في العصر العباسي إلى جانب العنصر العربي، وذلك حتى قيام الدولة الطاهرية، فمنذ استقلالها عن الخلافة في الشرق أصبح الحكم بيد غير العرب[٢].

ولا شك أن دور العرب بمرو كان دورًا حيويًّا هامًّا فقد قاموا بدور بارز في نشر الإسلام واللغة العربية، كما يرجع إليهم الفضل في تمصير المدينة وكثرة عدد المسلمين بها، وكان ذلك نتيجة طبيعية لاختلاط العرب بالفرس وانصهارهم معهم.

وإذا كان العنصر العربي قد حظي على السيادة وأسندت إليه المناصب السياسية الرفيعة[٣] إلا أنه لم يحظ بأي من هذه المناصب في العصر السلجوقي[٤]، ومع ذلك فقد ساهم العرب في نشر الحضارة الإسلامية في ذلك العصر، فقد قامت بيوتات عربية في مرو كان لها كبير الأثر في نشر المعارف والعلوم الإسلامية بما أنجبت من علماء أفاضل برعوا في علوم وفنون كثيرة، ومنها بيت السمعاني أحد بيوت بني تميم[٥]، وهو من أشهر البيوتات

---

(١) اليعقوبي: البلدان ٢٧٩.

(٢) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ترجمة زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود ٧٥.

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام ١/ ١١٩.

(٤) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٢/ ٣٩٨.

(٥) السمعاني: الأنساب ١/ ١١.

العربية الذائعة الصيت[١].

ومن الجدير بالذكر أن سلاطين السلاجقة كانوا يخافون من العنصر الغربي لاعتقادهم بأنهم أصحاب الحق في الحكم؛ لذلك أقصوهم عن المناصب الهامة وعن الجيش وفي نفس الوقت سعوا إلى مصاهرة الخلفاء العباسيين على اعتبار أن المصاهرة تمكنهم من أخذ الخلافة في أولادهم الذين يتصلون بالقرابة إلى الخلفاء، مما يكسب حكمهم الشرعية، ولذلك تسموا بأسماء عربية إلى جانب أسمائهم التركية[٢] والفارسية، كما جاءت معظم الكتابات التأسيسية على عمائرهم ونقودهم وأغلب مصنوعاتهم مدونة باللغة العربية.

وفي النهاية رغم أن العنصر العربي قد فقد قيمته السياسية خلال العهد السلجوقي في مرو إلا أن مؤثراته الحضارية كانت واضحة ومؤثرة في ذلك العصر.

فضلًا عن العناصر الرئيسية التي كان يتكون منها المجتمع في مرو خلال هذا العصر كانت هناك أقليات تقطن المدينة مثل الديلم الذين اقتصر دورهم في العصر السلجوقي على أعمال الحراسة في قصر السلطان، فكان يختار منهم مائة شخص تبعًا لتميزهم وقوتهم وجمال وجوههم[٣]، ولم يكن للديلم أي تأثير حضاري، بل كان يغلب عليه القسوة وغلظة الطباع[٤] وقد وصفهم المقدسي بأنهم رجال في القتال[٥]، ومن ثم فقد تميزوا بالشجاعة والقوة والمقدرة العسكرية.

---

(١) السمعاني: المصدر السابق ١/ ١١.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٥/ ٩٢.

(٣) نظام الملك: سياست نامه ١٣١.

(٤) البيهقي: تاريخ البيهقي ٢١.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٦٩.

ومن ضمن هذه الأقليات التي سكنت المدينة ولم يكن لهم وجود قبل هذا العصر الأرمن، الذين كانوا يجلبون من أرمينية للخدمة في الجيش السلجوقي، فكثر توافدهم وإقامتهم في مرو، وكانوا دائمًا مصدر للفتن والاضطرابات؛ لتعرضهم لسكان المدينة بالسرقة والأذى[١]، ولم يكن لهم حضارة فقد غلبت عليهم الصفات الحربية مما جعلهم يستأثرون بالخدمة في الجيش.

طبقات وطوائف المجتمع السلجوقي

تميز المجتمع في مرو خلال العهد السلجوقي بظهور عدة طبقات متفاوتة من حيث السلطة والثروة والحجم، وقد عاشت كل طبقة في عزلة عن الطبقة الأخرى، ولم تكن طبقات المجتمع في المدينة منغلقة على نفسها بل سمحت التقاليد والفرصة لأبناء الطبقات الدنيا في المدينة لصعود السلم الطبقي والارتقاء إلى الطبقات العليا عن طريق العلم[٢]، وقد ضمت كل طبقة من طبقات المدينة فيما عدا طبقة الحكام كافة الفئات والعناصر الجنسية والدينية بها، وشملت طبقات عديدة ومتنوعة؛ هي:

أ- طبقة السلطة والحكام

تتمثل هذه الطبقة في الفئة الحاكمة من السلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة، وقد تربع أفراد هذه الطبقة على قمة الهرم الطبقي ومثل أفرادها الإرستقراطية السياسية[٣] وتمتعت هذه الطبقة بدرجة عالية من البذخ والترف والنعيم[٤] نظرًا لثرائهم وكثرة ممتلكاتهم، فكان السلطان سنجر من أكثر

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٢٨.

(٢) نظام الملك: سياست نامه ٤٦.

(٣) د/ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق في العصر السلجوقي ١٧٦.

(٤) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ٦٢، القاهرة ١٩٧٩م.

السلاطين ثروة حيث وجد بخزانته الكثير من الأموال وبلغت جواهره ألفًا وثلاثين رطلًا[١]، كما تمثلت عظمة وأبهة الحياة في سلاطين السلاجقة في سكناهم القصور الفخمة التي كانت مضرب المثل في الروعة والجمال.

وقد عمل سلاطين السلاجقة دائمًا على التمسك بكافة مراسم السلطنة والبلاط إظهارًا لعظمة وجاه سلطانهم[٢] حيث كان لكل سلطان تخت وتاج وخاتم توقيع خاص به يوقع به على المراسلات والمكاتبات، كما كان يضرب للسلطان في المدينة نوبة حمراء، ويضرب له الطبل عند النزول أو القدوم[٣]،كما كان السلاطين يضعون القباء المرصعة بالجواهر على رءوسهم[٤].

وكان لكل سلطان وكيل خاص يشرف على القصر وعلى شئون السلطان ومطبخه وإصطبله ومراقبة الموظفين المكلفين بهذه الأعمال، ومنهم أمير أخور ووظيفته العناية بالخيول والإصطبلات[٥]، والجامدار[٦] وهو المسئول عن ملابس السلطان، والطشتدار وهو المسئول عن صب الماء للسلطان[٧]، وكان للوكيل رأي مسموع على كافة العاملين بالقصر السلطاني[٨]، وكان قصر السلطان مكتظًّا دائمًا بالمماليك والخدم ممن يقومون بأمور السقاية والشراب

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٤٢٧، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ١٢٤- ١٢٥.

(٢) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ١٢٢.

(٣) الراوندي: راحة الصدور ١٦٣- ٢٢٠.

(٤) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢١٧.

(٥) البيهقي: تاريخ البيهقي ٦٦٣، بدر عبد الرحمن محمد: رسوم الغزنويين ونظمهم الاجتماعية١٢٢، القاهرة ١٩٨٧م.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ٥/ ٤٥٩.

(٧) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ٢٠٥.

(٨) نظام الملك: سياست نامه ١٢٥.

واللباس[١].

وكذلك عدد من الغلمان الذين بلغوا أمير حجاب، كما شهدت هذه القصور كافة الحفلات ومجالس الغناء والموسيقى التي كانت تعقد ويستمتع بها السلطان مع ندمائه، كذلك كانت تعقد فيها جلسات الوعظ[٢] ودروس العلم والدين، كما تمتع الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة بدرجة عالية من الثراء، فقد شيدوا قصورًا فخمة حيث كانت تحاكي قصور السلاطين، كما قلدوا سلاطين السلاجقة في مظاهر حياتهم اليومية فعقدوا مجالس للوعظ والغناء والرقص، كما كان لسلاطين السلاجقة دور خاصة بنسائهم وبناتهم ملحقة بالقصر السلطاني، وكان يقوم بخدمتهن العديد من الخصيان والجواري، وكانت هذه الدور تخضع لنفس الترتيبات التي عليها قصر السلطان[٣].

ب-الطبقة الوسطى

تمثل هذه الطبقة قلب النظام الطبقي في مرو في العصر السلجوقي، وقد ضمت العلماء والدهاقين[٤] والصناع وأصحاب الثروات وكبار التجار، وكان معظم هؤلاء من سكان المدينة الأصليين، وقد مثلت هذه الطبقة الإرستقراطية المالية في مرو[٥]، وتمتع أفراد هذه الطبقة بالثراء وامتلاك الضياع والأملاك الكثيرة؛ وبالتالي عاشوا في رغد من العيش في بيوت فخمة مليئة بالخدم، وقد

---

(١) عبد النعيم حسنين: إيران في ظل الإسلام ٤٣- ٤٤، دار الوفاء، القاهرة ١٩٨٨م.

(٢) نظام الملك: المصدر السابق ذكره ٩٦- ٩٧، د/عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق١٨٤.

(٣) الرواندي: راحة الصدور ٣٠٢.

(٤) السمعاني: الأنساب ٢/ ٥١٦.

(٥) البيهقي: تاريخ البيهقي ١٩.

تمتع العلماء في مرو في العصر السلجوقي بمكانة هامة فكان لهم جلالهم واحترامهم عند سلاطين السلاجقة ووزرائهم وكبار رجال الدولة[١]، فكان من مآثر هذا العصر تشجيع العلم والعلماء في كافة المحافل؛ لذلك عاش العلماء في رغد من العيش، ومن العلماء الذين حظوا بمكانة كبيرة لدى السلاطين أبو بكر محمد بن منصور السمعاني المتوفى ٥١٠هـ/ ١١١٦م[٢] وأبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني المتوفى ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م[٣].

وقد حرص سلاطين السلاجقة ووزراؤهم على تقريب العلماء وعقد مجالس العلم بقصورهم، كما أحاطوا أنفسهم بنخبة عظيمة من العلماء والشعراء الذين قاموا بتأليف الكتب والمصنفات ونظم القصائد لمدحهم، وقد أغدق عليهم السلاطين الأموال الكثيرة تشجيعًا لهم[٤]، وكان سلاطين السلاجقة ووزراؤهم يحترمون العلماء وخاصة علماء الدين لجذبهم للدولة لما يتمتعوا به من احترام بين طبقات الشعب وتأثير على عقول العامة[٥].

وقد صارت مرو مقصد العلماء والشعراء في عهد السلطان سنجر الذي احترم علماء الدين وجمع حوله الشعراء والأدباء وأغدق عليهم الأموال والعطايا الكثيرة[٦]، وقد حظي الصوفية بمكانة رفيعة لدى جميع الطبقات وارتبطوا بطبقة السلاطين وداروا في فلكهم[٧] حتى إن السلاطين اتخذوا منهم

---

(١) نظام الملك: سياست نامه ٤٦- ٤٧.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٧.

(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٢٠٩.

(٤) اليزدي: العراضة في الحكاية السلجوقية ١١٨ و ١٥٨.

(٥) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٦٨.

(٦) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٥٥- ٥٦.

(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ٥/ ٢١.

رسلًا لقضاء بعض مصالح الدولة، ومنهم أبو منصور بن أردشير العبادي المتوفى ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، وكان رسولًا من قبل السلطان سنجر إلى بغداد[١] ولم يكن العلماء في عزلة عن المجتمع في مرو خلال العصر السلجوقي بل اندمجوا في المجتمع، وأثروا فيه تأثيرًا كبيرًا من خلال مجالسهم في المساجد والمدارس لتدريس علوم الدين وتعريف الناس أحكامه، وكذلك بثهم الآراء السياسية والدينية الخاصة بهم، وقد تمتع العلماء بمكانة رفيعة وثروة طائلة، فكانت أسرة السمعاني تمتلك الكثير من الأراضي في قرى مختلفة من مرو مثل قرية شوال وأنداق وزبونة[٢].

كما تميز العلماء بلباس خاص بهم يميزهم عن غيرهم فكانوا يلبسون الطيلسان الأسود[٣] والمبطنة[٤] والدراعة السوداء[٥] والصوف الأبيض، ولا يلبسون الحرير أو الملون إلا في بيوتهم، وكانوا يضعون على رءوسهم العمائم السوداء المصقولة[٦]، هكذا أنجبت مرو من العلماء والأدباء والشعراء ما لم تنجبه مدينة أخرى.

صفوة القول: لقد تمتع علماء مرو في العهد السلجوقي بمكانة بارزة وتقلدوا المناصب القضائية والعلمية، فكان منهم القضاة والخطباء في المساجد، ومنهم أصحاب الصوفية والمذاهب الدينية، ومنهم الشعراء والأدباء والكتاب، وهم بذلك كانوا يمثلون أعلى فئة من المفكرين والمثقفين في مرو، كما

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٢١٢، السمعاني: الأنساب ٤/ ١٢٣.

(٢) السمعاني: الأنساب ٤/ ٢١٥.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ٣/ ٢٨٧.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٤٤.

(٥) ابن منظور: لسان العرب ٨/ ٨٢.

(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ٤٤.

امتلكوا الثروات الطائلة وعاشوا خلال العهد السلجوقي في رغد من العيش.

أما الدهاقين فقد تمتعوا بمكانة بارزة قبل الفتح الإسلامي لمرو، وبعد الفتح شاركهم العرب نفوذهم، ومع ذلك ظلوا يتمتعون بمنزلة عظيمة لما امتلكوه من أراضي وثروات طائلة حتى إنهم صاروا على عهد السلطان سنجر كالملوك والأمراء[١].

كما تمتع الصناع وأرباب الحرف بالثروات والأموال الكثيرة وعاشوا في مستوى مرتفع نتيجة للازدهار الاقتصادي الذي شهدته المدينة في هذا العصر، ولاسيما أن أغلب مصنوعاتهم كانت لأفراد الطبقة الحاكمة، وقد أكد الغزالي أهميتهم حين قال: إن الصناعات من ضرورات ومستلزمات الحياة وخاصة مع تنوعها وتعددها والتفنن بها[٢].

وقد تعددت الصناعات والحرف في مرو في العصر السلجوقي مثل: الحدادون الذين يعملون في صناعة الأدوات الحديدية[٣] والنحاسون الذين يصنعون الأدوات النحاسية[٤]، وأيضًا الصاغة الذين يصنعون الحلي[٥].

وأهم ما يتميز به الصناع وأرباب الحرف أن أصحاب كل حرفة كانوا يتكتلون في مكان معين، وكانت هذه التكتلات بسيطة لا تعني وجود نقابات بالشكل المعروف الآن، كما كانوا يجتمعون مع بعضهم البعض في السكن[٦] مما

---

(١) الجويني: تاريخ جهانكشاي ١/ ١٥١.

(٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ١/ ٢٣٠، القاهرة ١٣٥٨هـ.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٠٠، السمعاني: الأنساب ٢/ ١٨٢.

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٥٠.

(٥) ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ٢/ ٢١٠.

(٦) حسن كريمان: ري باستان م١، ١٩٦- ٢٠٣.

أدى إلى خلق نوع من التقارب الاجتماعي والمودة والألفة، ومما أكد هذه العلاقات الطيبة اعتناقهم لمذهب ديني واحد؛ فأدى ذلك إلى خلق وحدة اجتماعية بين أرباب الحرفة الواحدة[١]، ولكل حرفة رئيس عادة ما يكون أكبرهم سنًّا يمثل مصالحهم ويحمي أعضاءهم ويحفظ النظام بين أعضاء فرقته.

هكذا كانت مرو قلعة صناعية هامة في العصر السلجوقي وجالت منتجاتها سائر الآفاق بفضل صناعها المهرة.

كما تمتع التجار بمكانة هامة في مرو، وقد ساعدهم في ذلك موقع المدينة على طريق القوافل الرئيسية[٢] مما ساعدهم على جني ثروات كبيرة من وراء تجارتهم سواء الداخلية أو الخارجية.

وقد قامت هذه الطبقة بدور حيوي ومؤثر في حياة المدينة الاقتصادية مما جعل سلاطين السلاجقة يحرصون على إرضائهم، حتى إنهم كانوا يمثلون السلاطين في عاصمة الخلافة العباسية[٣]، وقد ضمت هذه الطبقة كافة العناصر الجنسية والطوائف الدينية من مسلمين ويهود ونصارى ومجوس، وأخيرًا تعرض أفراد هذه الطبقة لبطش الغيارين الذين كانوا يقومون دائمًا بسرقتهم وسلب أموالهم ونهب دورهم[٤].

٣-الطبقة الدنيا

تمثل هذه الطبقة غالبية المجتمع في المدينة، وكانت تضم العامة والرقيق فهي خليط من مختلف الأجناس الموجودة آنذاك، فكان من بينهم العربي والتركي

---

(١) حسن كريمان: المرجع السابق م١، ١٩٦- ٢٠٣.

(٢) مرتضى الراوندي: تاريخ اجتماعي إيران م١، ٤٢٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٩٢- ٩٣.

(٤) القزويني: آثار البلاد ٣٧٦.

والفارسي والديلمي وغيرهم من الأجناس الأخرى، وكان أغلبهم من المسلمين وقليل منهم من أهل الذمة[١].

ولم يكن للعامة مكانة خاصة في المجتمع، فقد وصفهم البعض بالجهل في الأمور الدينية وفي النواحي الثقافية، وأطلق عليهم المؤرخون أسماء مختلفة منها السفلة والغوغاء والسقاط والجماهير والدهماء والأوباش والحرافيش إلى غير ذلك من النعوت[٢]، وقد عاشت العامة حياة بسيطة يكاد الحال يصل ببعضهم إلى حد الحرمان من متطلبات الحياة سوى القليل من الطعام والملبس والمسكن[٣].

وفي الحقيقة لقد لعب دورًا هامًّا في الخلافات المذهبية التي كانت سائدة في مرو في هذا العصر، فعندما تحول الشيخ أبو المظفر بن محمد السمعاني المتوفى ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م اضطرب أهل مرو، وقامت الفتن بين العامة[٤] حتى وصلتهم كتبٌ من البلدان المجاورة بالتشديد عليه وإخراجه من مرو[٥] فذهب إلى نيسابور حيث استقبله الوزير نظام الملك استقبالًا كبيرًا[٦].

وقد ضمت العامة الغيارين والشطار الذين ساهموا بدور كبير في إثارة الفتن والاضطرابات والفوضى في مرو في ذلك العصر[٧]، وكانت هذه الجماعة

---

(١) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٤/ ٦٢٥.

(٢) محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق الإسلامي ٢٤١- ٢٤٢.

(٣) د/ أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة ٢٠.

(٤) السبكي: طبقات الشافعية ٤/ ٢٠٣.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ١١٦.

(٦) القزويني: التدوين في أخبار قزوين ٤/ ١١٩.

(٧) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٤٨.

تقوم بسرقة الأغنياء ونهب دورهم[١]، ولم يقتصروا على جنس معين أو دين معين، بل ضموا بين صفوفهم مختلف الأجناس والديانات، وكان لهذه الجماعة عادات وتقاليد وطقوس معينة لكل مَن ينضم إليها، وكان لهذه الجماعة رئيس يتولى تنظيمها والإشراف عليها[٢].

أما الرقيق: فقد عرفت مرو نظام الرق من مصدرين؛ أحدهما: غنيمة الحروب التي خاضها المسلمون في خراسان وما وراء النهر إبان الفتح الإسلامي لتلك البلاد، وكان ضمن الغنائم أعدادًا كبيرة من الأسرى الذين كانوا يوزعون على الجنود[٣]، أما المصدر الآخر فكان يأتي بالرقيق عن طريق التجارة بواسطة النخاسين الذين لعبوا دورًا هامًّا في تجارة الرقيق[٤]، ومما ساعد على ذلك أن مرو كانت محطة لتجارة الرقيق في طريقها من الشرق إلى الغرب.

وقد زاد الرقيق في مرو خلال العصر السلجوقي بصفة عامة وعهد السلطان سنجر بصفة خاصة؛ لكونها حاضرة الدولة السلجوقية؛ فقد زخرت قصور السلاطين والأمراء وكبار رجال الدولة بالكثير من الرقيق وعلى الأخص الجواري وأحسن المماليك[٥] وقد شارك الرقيق في مرو في العصر السلجوقي في مختلف الأعمال فكان لهم دور في الحياتين الاجتماعية والسياسية، فمن الناحية الاجتماعية فقد خدم هؤلاء الرقيق في قصور السلاطين والأمراء

---

(١) عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٥٦- ١٥٧.

(٢) د/ حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي ٣١- ٣٣.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان ٣٨٦، آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٣١.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسم ٢٦١.

(٥) ابن حوقل: صورة الأرض ٩٢- ٩٤.

والأغنياء[١]. ومن الناحية السياسية شارك الرقيق كجنود وقواد وأمراء وقد بلغ نفوذهم درجة كبيرة في العصر السلجوقي، فكان جوهر المعروف بالمقرب المتوفى ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م قد بلغ مكانة هامة لدى السلطان سنجر وتدخل في شئون دولته وكثرت إقطاعاته وثرواته، وكان لديه مماليك كثيرون، وقد قتل على يد الباطنية وحزن السلطان سنجر كثيرًا عليه[٢] ولا شك أن هذا الانقلاب الاجتماعي للمماليك يرجع إلى السلاطين السلاجقة أنفسهم، وخاصة السلطان سنجر الذي رفع بعضهم إلى درجة عالية وقربهم إليه ومنحهم الإقطاعيات والأموال[٣].

وجدير بالذكر أن كثرة أعداد الرقيق قد أدى إلى انتشار الفساد والرذيلة بين طبقات المجتمع.

أما الطوائف الدينية: فظهر في مرو طوائف دينية عديدة خلال العصر السلجوقي كانت هي قوام المجتمع الذي انقسم إلى مسلمين وأهل الذمة:

١-المسلمون

يمثل المسلمون غالبية سكان مرو، وكانوا يتمتعون بمكانة سياسية واجتماعية رفيعة، وانقسم المسلمون إلى فرق وأحزاب صار لهم نظريات عقائدية تشمل كلًّا من الدين والسياسة، وهم فرقتا السُّنَّة والشيعة. وقد شهد هذا العصر سلسلة طويلة من الصراعات والفتن بينهم[٤] ولم تقتصر الصراعات

---

(١) الأصفهاني: الأغاني ٨/ ٢٤٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ٣١٥.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ١٤٦، خواندمير: دستور الوزراء ٢٨٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١٧٤، عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ١٧١.

بين الشيعة والسُّنَّة بل امتدت لتشمل أهل السُّنَّة أنفسهم[١] الحنفية[٢] والشافعية[٣] وبلغ الصراع حدته؛ فكان أشد ضراوة مما كان بينهم وبين الشيعة[٤].

وكان المذهب الشافعي منتشرًا في معظم مدينة مرو، ويرجع الفضل إلى أحمد بن سيار الذي أدخل هذا المذهب إلى المدينة؛ أما المذهب الحنفي فقد دخل المدينة قبل المذهب الشافعي بكثير، وكان سلاطين السلاجقة الأوائل يعتنقون المذهب الحنفي وهو مذهب الخلافة العباسية الذي أخذوه عن الدولة السامانية[٥].

وقد زاد أتباع المذهب الحنفي في مرو في بداية عصر السلاجقة لتسامحه الديني في دراسة العلوم العقلية؛ إلا أن شوكة الشافعية سرعان ما قويت نظرًا لاهتمام بعض الوزراء الشافعيين بالناحية العلمية، وعلى رأسهم الوزير نظام الملك الشافعي المذهب، الذي بنى المدرسة النظامية في مرو وجعل التدريس فيها وقفًا على فقهاء الشافعية أصلًا وفروعًا[٦].

وقد ظلت العلاقة بين أنصار المذهبين تتصف بالتوتر والمنافسة والتشدد طوال العصر السلجوقي[٧] بل كانوا يكفر بعضهم البعض وكان يشعل نار هذه

---

(١) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١١٨. ترجمة حمزة طاهر-دار المعارف القاهرة ١٩٦٤م.

(٢) سيد مرتضى: تبصرة العوام ٨٩.

(٣) سيد مرتضى: المرجع السابق ١٤٣.

(٤) القزويني: آثار البلاد ٣٧٦.

(٥) القزويني: آثار البلاد ٣٧٦.

(٦) بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى ١٠٨.

(٧) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٢٧٨، ابن الأثير: الكامل ٩/ ٢٧٢، الذهبي: العبر ٢/ ٣٤٤، ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ١٦٥.

الفتنة أحيانًا سلاطين السلاجقة ووزراؤهم، ومما ساعد على تأجج نار الفتنة في مرو انتقال أبي المظفر السمعاني عن المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م، مما أدى إلى اضطراب أهل مرو وتشوش العوام بها واحتدام الخصومة بين أتباع المذهبين وإغلاق باب الجامع القديم، وترك الشافعية صلاة الجمعة[١] واضطرمت نار الفتنة بين الفريقين حتى كادت تملأ خراسان والعراق[٢] ولم تكن هذه الفتنة هي الوحيدة التي حدثت بمرو بل اشتعلت صراعات مذهبية بين الحنفية والشافعية بلغت ذروتها في عهد السلطان سنجر[٣].

وقد بلغت حدة التعصب الديني خلال العصر السلجوقي إلى حد لعن بعض الفرق على المنابر، ومن أهم هذه الفرق الأشاعرة[٤] وذلك بناء على أوامر أصدرها السلطان طغر لبك سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م عندما أمر بلعن الرافضة ومعهم الأشاعرة على المنابر؛ حيث اعتبر الأشعري مبتدعًا يزيد على المعتزلة[٥] لأن المعتزلة أثبتوا أن القرآن في الصحف، والأشعري نفاه؛ ولكن هذا التعصب الذي كان ضد الأشاعرة سرعان ما تغير في عهد السلطان ألب أرسلان الذي كان يأخذ بالعقيدة الأشعرية[٦] ومنذ ذلك الوقت صار سلاطين السلاجقة على العقيدة الأشعرية وحاربوا المعتزلة حربًا شديدة فضعفت المعتزلة في ذلك

---

(١) الأسنوي: طبقات الشافعية ٢/ ٢٩، السبكي: طبقات الشافعية ٤/ ٢٠٣، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ١١٦.

(٢) الأسنوي: طبقات الأسنوي ٢/ ٢٩، السبكي: طبقات الشافعية ٤/ ٢٠٣.

(٣) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢٢٣.

(٤) سيد مرتضى: تبصرة العوام ١٠٩.

(٥) الشهرستاني الملل والنحل ١/ ١٥٣.

(٦) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٠٩- ٢٣٣، وفيات الأعيان ٥/ ١٣٨.

العصر[١].

والواقع أن الصراعات المذهبية لم تقتصر على سكان مرو خلال العصر السلجوقي، بل تدخل السلاطين في هذه الصراعات المذهبية، وذلك بعقد المجالس ومتابعة المناقشات المتبادلة بين الفرق المختلفة، هكذا اتسمت مرو خلال هذا العصر بالاضطراب المذهبي، وقيام سلسلة طويلة من الثورات والفتن بين كافة الفرق الدينية مما نتج عنه انتشار الفوضى والخوف بين الناس[٢].

٢-الشيعة

ولما كان السلاجقة سُنِّيِّين متعصبين للمذهب الحنفي فقد قاموا بمطاردة عنيفة للشيعة، وشملت المطاردة الشيعة بصفة عامة سواء المعتدلة أو الغلاة[٣] وكان أغلب الشيعة في مرو خلال هذا العصر من الزيدية والاثني عشرية؛ وكان أتباع الزيدية أقرب فرق الشيعة إلى السُّنَّة وهم ينتسبون إلى إمامهم زيد بن علي زين العابدين بن الحسين، وكان مبدؤهم يقوم على جواز ولاية المفضول على المسلمين مع وجود علوي؛ ولم يطعنوا في الصحابيين الجليلين أبي بكر وعمر ولا في ولايتهما، كما أنهم لا يؤمنون بنظرية الإمام المختفي مثل الاثنا عشرية ولا بنظرية الإمام المستور كالإسماعيلية؛ لذلك فقد كانت الزيدية من فرق الشيعة المعتدلة[٤].

أما فرقة الاثنا عشرية فكان أتباعها يؤمنون بأن الإمامة في أولاد موسى

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٥٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٧٤.

(٣) بطروشوفسكي: الإسلام في إيران ٢١٩.

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ١٦٢.

الكاظم بن جعفر الصادق وهو علي الرضا ثم محمد التقي إلى أن تصل إلى الحسن العسكري الزكي[١] ثم ابنه محمد القائم وهو الإمام المهدي المنتظر عندهم وهو الثاني عشر، ينتظرون عودته ليملأ الأرض عدلًا ونورًا، وكان أتباع هذه الفرقة يؤمنون بعصمة الإمام وأنه نقي من الذنوب والعيوب[٢].

كما شهدت مرو فرقة من أخطر فرق الشيعة على الإطلاق وهي فرقة الإسماعيلية[٣] الذين بدأ نفوذهم في الازدياد في عصر نصر بن أحمد الساماني ٣٣١هـ- ٣٤٣هـ/ ٩٤٢م- ٩٥٤م بفضل بعض الدعاة ومنهم الداعي الحسين ابن على المروزي الذي دعا أهل خراسان لهذا المذهب.

ولما رأى الأمير نوح الساماني ازدياد نفوذهم أعلن عليهم حربًا شعواء؛ فظل هذا المذهب مستورًا[٤] وفي العهد الغزنوي عمل السلطان محمود على القضاء عليهم وكذلك في عهد ابنه السلطان مسعود؛ وفي عصر السلاجقة تعرضت هذه الفرقة لبطش واضطهاد سلاطين السلاجقة، ويبدو أن هذا الاضطهاد لم يفت في عضدهم، على العكس فقد اشتدت مقاومتهم وعنفهم وزاد عددهم[٥] حتى أصبحوا مصدر خطر يهدد كيان الدولة السلجوقية؛ وقد أخذت الإسماعيلية تنتشر بشكل سريع ومخيف على يد مؤسسها الحسن الصباح[٦] الذي نجح في تنظيمها عسكريًّا؛ وتكمن خطورة هذه الفرقة في

---

(١) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات ٥٠٧.

(٢) د/ علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ٢/ ٢٩ دار المعارف القاهرة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل ١/ ٤٢١، البغدادي: الفرق بين الفرق ٣٩.

(٤) محمد السعيد: دولة الإسماعيلية في إيران ٧٦- ٧٧.

(٥) ناصر خسرو المروزي: جامع الحكمتين ٢٧ ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا.

(٦) ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية ٣٠٠.

استخدامها العنف والقوة وسفك الدماء؛ للتخلص من الخصوم والمعارضين وكل من يقف أمامها، وانتشر فدائيوها في مرو وغيرها من أقطار الدولة الإسلامية يغتالون السلاطين والوزراء، ويبثون الرعب في أرجاء العالم الإسلامي[١]. ومن أشهر الأمثلة على ذلك اغتيال الوزير نظام الملك بيد أحد الفدائيين[٢].

وقد انتهز الحسن الصباح النزاع الذي وقع على العرش بعد وفاة ملكشاه لتثبيت أقدامه وبث دعاته[٣] ورغم ما تعرضت له الباطنية من عمليات إبادة وقتل على نطاق واسع من قبل سلاطين السلاجقة إلا أن عددهم أخذ في الزيادة في مرو ولا سيما في عهد السلطان سنجر؛ حيث توطدت العلاقة بينه وبينهم، ومما يؤكد هذه العلاقة عهد المودة الذي عقد معهم، وأطلق أيديهم في النواحي التي امتلكوها، ولم يقبل أهل مرو هذا الصلح واتهموا السلطان سنجر بتحالفه معهم[٤]، ومما يؤكد هذا التحالف أيضًا موقفه السلبي إزاء قتلهم مملوكه المقرب جوهر.

وفي النهاية نقول: لقد شهدت مدينة مرو سلسلة طويلة من الاضطرابات والثورات بين السُّنَّة والشيعة بلغت حد الحرق والقتل؛ مما كان له تأثيره الخطير على حياة الناس الدينية التي أصبحت مضطربة ومهددة دائمًا؛ ما نتج عنه شيوع التعصب والخرافات والميل للعزلة والانزواء، كما ساعد هذا الوضع المضطرب على نشاط فرقة الباطنية التي وجدت في صراعات سلاطين السلاجقة المناخ المناسب لتنفيذ خططها وقيامها بعمليات الاغتيال.

---

(١) ميرخوند: روضة الصفا ٢٤٤.

(٢) بطروشوفسكي: الإسلام في إيران ٢٧١.

(٣) محمد السعيد جمال الدين: دولة الإسماعيلية في إيران ١٠١.

(٤) ميرخوند: روضة الصفا ٢٤٦، عباس إقبال: السلاجقة تاريخ إيران بعد الإسلام ٢٧٧.

٣-أهل الذمة

عاش أهل الذمة في مرو خلال العصر السلجوقي في جوٍّ من التسامح والحرية[١] فكان لهم ما للمسلمين من حقوق وواجبات، ومارسوا شعائرهم الدينية في أمن ودعة دون أدنى تدخل من سلاطين السلاجقة، كما لم يتدخلوا في خصوماتهم فكان لهم محاكمهم الخاصة التي تفصل بينهم[٢].

وقد حفلت مرو بعدد كبير من النصارى واليهود قبل الإسلام، ومع الفتح الإسلامي شهدت مرو تحول جماعات كبيرة من النصارى إلى الإسلام[٣] ومن ثم فقد حوت مرو خلال هذا العصر أعدادًا كبيرة من اليهود، وعددًا قليلًا من النصارى[٤].

أما المجوس فقد اعترف بهم رسميًّا كأهل ذمة في القرن الرابع الهجري إلى جانب اليهود والنصارى؛ ولا شك أن العصر السلجوقي كان عصرًا ذهبيًّا لأهل الذمة لما تمتعوا به من حرية وتسامح.

٤-اليهود

تمتع اليهود في مرو بكثير من ضروب التسامح الديني، وكثر عدد اليهود في مرو وكان لهم رئيس عام وهو رأس الجالوت، وكان هذا المنصب وراثيًّا، وتمتع اليهود بحرية انتخاب رؤسائهم، وكان الخليفة العباسي يقر هذا الانتخاب؛ وذلك بمنحه ختم الرئاسة على أبناء ملته، وكان هذا المنصب من الأهمية بحيث

---

(١) بنيامين التطيلي: رحلته ١٦٣ ترجمة عزرا حداد.

(٢) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات ٥٠٤.

(٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ٧٥- ٧٦.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٣، البيروني: الآثار الباقية ٢٨٩.

يسري نفوذه على جميع طوائف اليهود المنتشرين بالدولة الإسلامية[١] وقد ترك سلاطين السلاجقة لهم حق القضاء بين رعاياهم دون تدخل منهم؛ وقام اليهود بجميع الأعمال التي تدر عليهم الأرباح الوفيرة، فاشتغلوا بالصيرفة والتجارة، وكان لهم نشاط ملموس في الحياة الاقتصادية في مرو، كما اشتغلوا بصناعة الذهب واستبدال العملة[٢] وكان لليهود لباس خاص بهم يتميزون به عن المسلمين: فكانوا يرتدون البراطل الطويلة[٣] وقد أدى اليهود الجزية، وقد بلغ مقدارها في هذا العصر دينار ذهب عن كل فرد بلغ الخامسة عشر من عمره[٤] وكان السلطان يأخذ نصف الجزية والنصف الآخر يأخذه رؤساء اليهود لدفع مرتباتهم منه[٥].

٥-النصارى

تحوي مرو عددًا قليلًا من النصارى الذين عاشوا في حرية خلال هذا العصر، كما مارسوا شعائرهم الدينية في حرية تامة؛ وكانت مرو مركز مطارنة النصارى وكانت لهم فيها كنيسة وأديرة للرهبان[٦].

والنصارى في مرو طائفتان: اليعاقبة ورئيسهم البطريق؛ والنساطرة ورئيسهم الجاثليق النسطوري[٧] وكان المذهب النسطوري هو الأكثر انتشارًا

---

(١) بنيامين: رحلته ١٣٦ - ١٣٧.

(٢) عطية القوصي: الحضارة الإسلامية ٩٧.

(٣) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ٢٠١ ترجمة حسن حبشي.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية ١/ ٨٤.

(٥) بنيامين: رحلته ١٥٤.

(٦) ابن منظور: لسان العرب م١، ٢٦٠ طبعة دار المعارف القاهرة والأصطخري: المسالك والممالك ١٨٠، الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٧/ ١٧٣.

(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم ٢٧٤- ٢٧٥.

بين نصارى مرو منذ العصر الساساني[١] وتمتع النصارى بحرية انتخاب رؤسائهم، كما تُرك لهم حق القضاء بين رعاياهم وكان للنصارى زي خاص بهم، فقد كانوا يلبسون البرانس ثم لبسوا بعد ذلك القلانس الطويلة[٢].

وقد شارك النصارى المسلمين في وظائف الدولة وفي وممارسة المهن الحرة كالتجارة والصناعة، كما شاركوا المسلمين في النواحي العلمية والأدبية، فمنهم من كان طبيبًا ومهندسًا وصرافًا وتاجرًا وبزازًا؛ ولم ينفصل المسلمون عن النصارى إلا في ممارسة الطقوس الدينية ومناطق السكن[٣]. وهكذا كانت كافة الأعمال متاحة للنصارى وكان النصارى مثل باقي أهل الذمة في مرو يدفعون الجزية المقررة عليهم[٤].

٦-المجوس

وهم سكان المدينة الأصليون الذين بقوا على دينهم الممثل في الديانة الزرادشتية وهي عقيدة الفرس القديمة الرئيسية[٥] وقد عاش المجوس في جوٍّ من التسامح والحرية الدينية في ممارسة شعائرهم الدينية، وكان للمجوس رئيس يمثلهم مثل غيرهم من طوائف أهل الذمة، ويتم انتخابه من بينهم ممن له الشرف والسيادة[٦] كما كان لهم حق القضاء فيما بينهم، فكان لهم قاضٍ خاص بهم يعرف بالموبذ[٧] كما كانوا يؤدون الجزية المقررة عليهم مثلهم مثل باقي أهل الذمة[١].

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية ١/ ٨٤.

(٢) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ٦٠، إبراهيم العدوي: النظم الإسلامية ٣٨٩.

(٣) أرثر كريستسن: إيران في عهد الساسانية ١٣٢.

(٤) آدم متز: المرجع السابق ذكره ٥٨.

(٥) أرثر كريستس: المرجع السابق ذكره ١٩٧.

(٦) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٥٨.

(٧) أرثر كريستسن: إيران في العهد الساسانية ١٩٧.

ومارسوا أيضًا كافة الأعمال التي تدرُّ عليهم الربح الوفير؛ فاشتغلوا بالزراعة والصناعة، كما بلغوا درجة عالية بفضل نبوغهم[٢] كما كان لهم زيٌّ خاص بهم تمييزًا لهم عن غيرهم.

خلاصة القول: لقد عاش أهل الذمة في مرو خلال العصر السلجوقي في أمن ودعة، وتمتعوا بحياة هادئة مستقرة فلم يشهد هذا العصر أي فتن بين أفراد أهل الذمة، وبلغ من تسامح سلاطين السلاجقة نحو أهل الذمة أنهم كانوا يشاركونهم في الاحتفال بأعيادهم.

ومن الجدير بالذكر أن الطوائف الدينية قد انفصلت عن بعضها البعض تمام الانفصال، فلم يكن اليهودي يتحول إلى النصرانية ولا العكس، واقتصر تغيير الدين على الدخول في الإسلام، كما امتد هذا الانفصال ليشمل أمور الزواج فيما بينهم وأمور الميراث.

مظاهر الحياة العامة

١ - الأعياد

اهتم أهالي مرو كغيرهم من الشعوب بالاحتفال بكافة الأعياد التي تمر مناسبتها عليهم، فاحتفلوا بالأعياد الدينية، كما احتفلوا بالأعياد القومية الخاصة بهم والموروثة منذ القدم، وظلوا متمسكين بها ومحتفظين بقدسيتها في العصر العباسي[٣].

---

(١) آدم متز: المرجع السابق ذكره ٦٠، د/ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٧٢.

(٢) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٤٢٦.

(٣) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٤٥٢ - ٤٥٣.

أ-الأعياد الرسمية

اهتم أهل مرو خلال العصر السلجوقي بالاحتفال بالعيدين: عيد الفطر وعيد الأضحى[١] شأنهم شأن سائر المسلمين في العالم الإسلامي، وبالنسبة لعيد الفطر كان الناس يحتفلون به برؤية هلال شهر شوال؛ ويسمى يوم الرحمة لأن فيه يرحم الله عباده بالفطر بعد صيام شهر رمضان[٢] وتقام في هذا العيد الزينات في جميع أنحاء المدينة ابتهاجًا لهذه المناسبة السعيدة، فتضاء فيها الأنوار، وينشر فيها الورود والرياحين، ويلبسون الثياب الجديدة؛ وفي الصباح يخرج الناس لصلاة العيد ودائمًا كان السلطان السلجوقي يحضر صلاة العيد ويستمع إلى خطبة العيد، وغالبًا تشتمل على عدد من المواعظ وما يجب على المسلمين من الالتزام به من كريم الأخلاق، والمحافظة على شعائر الإسلام[٣] وبعد الصلاة يتبادل المسلمون التهاني فرحين بإتمام شهر رمضان ثم يخرجون لزيارة الأصدقاء وتناول الأطعمة التي أعدت خصيصًا لمثل هذا اليوم[٤].

أما عيد الأضحى فكان يبدأ الاحتفال به من ليلة التاسع من ذي الحجة يوم عرفة ويوم العيد يخرج المسلمون لأداء صلاة العيد ويلقي عليهم الخطبة في فضائل العيد[٥] ثم يضحيِّ المسلمون تقربًا إلى الله، واقتداء بسنة الرسول ﷺ[٦].

---

(١) الكرديزي: زين الأخبار ٣٤٩، النويري: نهاية الأرب ١/ ١٨٤.

(٢) البيروني: الآثار الباقية ٣٢٩.

(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٣٦، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٣/ ٤٥٢.

(٤) البيهقي: تاريخ البيهقي ٢٩٩.

(٥) النويري: نهاية الأرب ١/ ١٨٤.

(٦) الكرديزي: المصدر السابق ذكره ٣٦١، جلال الدين همائي أصفهاني: تاريخ أدبيات إيران جلد دويم ٢١٦.

ومن المناسبات الدينية أيضًا الاحتفال بحلول شهر رمضان، والاحتفال برأس السنة الهجرية، ويوم عاشوراء، ويوم المولد النبوي، ويوم الإسراء والمعراج، وليلة القدر، ويوم عرفة[١].

كما احتفل الشيعة بأعيادهم الخاصة بهم والتي من أهمها عيد غديرخم[٢] (مكان بين مكة والمدينة بينه وبين الجحفة ميلان) وهو أعظم أعيادهم ويوافق الثامن عشر من ذي الحجة ويعتقد فيه الشيعة أن الرسول عهد فيه إلى عليِّ بن أبي طالب بالوصاية بعد عودته من حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة، ولما نزل بغديرخم أخذ بيد علي وقال (ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه)[٣].

ويركز الشيعة على هذا الحديث باعتباره تصريحًا ومبايعة علنية من الرسول ﷺ لعلي[٤]، ويعلق الشيعة في هذا اليوم الزينات، وتفتح الأسواق، وتضاء الأنوار، ويذبحون الذبائح[٥].

واتخذ الشيعة يوم عاشوراء مناسبة لإظهار حزنهم وفزعهم، وقاموا بالبكاء لمقتل الحسين بكربلاء[٦] ويقام العزاء بكافة المساجد، ويلقي الخطباء والأئمة خطبًا تذكر سوء أفعال الأمويين وتلعن معاوية[٧].

---

(١) الكرديزي: زين الأخبار ٣٤٩.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ١٨٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٢/ ٤٤٤- ٤٤٥، تاريخ اليعقوبي ١١٢.

(٤) د/ محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر ٨١ دار الفكر العربي-القاهرة ١٩٤٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٨/ ٤٠٧.

(٦) الكرديزي: زين الأخبار ٣٥.

(٧) القلقشندي: صبح الأعشى ٢/ ٤٤٤- ٤٤٥، عبد الجليل الرازي: النقض ٤٠٢.

ب-الأعياد الفارسية

وهي أعياد فارسية موروثة منذ القديم، وتعرف بالأعياد القومية، وظل أهل مرو متمسكين بها، فقد كانت تمجد قوميتهم، وتشعرهم بتميزهم كما يرجع معظمها إلى معتقدات اجتماعية ظلوا مؤمنين بها[١].

١-النيروز

وهو من أهم الأعياد الفارسية التي احتفل بها أهل مرو احتفالًا خاصًا، ومن مظاهر هذا الاحتفال بمرو أن المجوس كانوا يوقدون النار بالمعابد، وتضاء الأنوار في أنحاء المدينة ويتهادون فيه الهدايا الكثيرة ومن بينها الملابس والسكر[٢] كما كان من عادة العوام أن يرفعوا النار في ليلته ويرشون الماء بصبيحته[٣] وقد احتفل أهل مرو بالنيروز بجانب الأعياد الإسلامية، وكان الاحتفال به يمثل مكانة مهمة، ولم يقتصر على الفرس وحدهم بل أصبح عيدًا شعبيًّا واحتفل به رسميًّا[٤] وشاركهم السلاطين في الاحتفال بالعيد، وكانوا يتقبلون الهدايا فيه من وزرائهم وأمرائهم[٥]. كما كان الأطفال يفرحون في هذا اليوم ويلعبون ويشترون الحلوى المصنوعة خصيصًا بمناسبة النيروز وتكون على هيئة حيوانات وكانوا يلعبون باللعب الخشبية كالتروس والسيوف وكانت الأسواق تزين في هذا اليوم وتباع بها الحلوى والأطعمة[٦].

---

(١) البيروني: الآثار الباقية ٢٩٩.

(٢) البيروني: الآثار الباقية ٢١٦.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ٢/ ٤٤٦، النويري: نهاية الأرب ١/ ١٨٦.

(٤) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٨٢.

(٥) طه ندا: فصول من تاريخ الحضارة الإسلامية ١١٤.

(٦) فؤاد عبد المعطي الصياد: النيروز وأثره في الأدب الفارسي ٥٦.

٢-المهرجان

من الأعياد الفارسية المهمة ويوافق أول أيام الشتاء في السنة الفارسية وظل هذا العيد إلى جانب النيروز من أكبر أعياد الفرس في مرو في العصر السلجوقي؛ فكان أهل مرو يحتفلون به ويتهادون كما كانوا يغيرون الآثاث ويشترون الملابس الجديدة؛ تعبيرًا عن فرحتهم بالعيد، كما كانوا يفرحون ويلعبون فيه[١]. ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد قرع الطبول ونفخ الأبواق وتعليق الزينات وأكل الرمان، والدجاج المشوي والخص، والبيض المسلوق[٢].

٣-عيد السرق

وهو من الأعياد الفارسية التي احتفل بها أهل مرو وهو ليلة الحادي عشر من شهر بهمن ويسمى هذا اليوم (أبان روز)[٣] ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد إيقاد النيران حيث كان الفرس يجمعون كثيرًا من الحطب حتى يصير كالجبل ارتفاعًا ويجمعون كثيرًا من الطيور والحيوانات ثم يشعلون النار فيها حتى يشاهد ضوؤها على بعد عشرة فراسخ ثم يبللون الطيور والحيوانات بالنفط ويطلقونها وقد علقت النار بها ويقوم الأهالي بالابتهاج حولها.

٤-عيد الكوسج

وهو من أعياد الفرس وهو يوافق أول يوم من شهر أذرما الفارسي وهو الشهر التاسع من السنة الشمسية الإيرانية (٣٠ يومًا من ٢٢ نوفمبر إلى ٢١ ديسمبر) ويعتقد أهل مرو أن الله يقدر ويكتب في هذا اليوم حظوظ الناس من

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ٢/ ٤٤٨- ٤٥٠، آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٤٨.

(٢) النويري: نهاية الأرب ١/ ٤٢.

(٣) محمد أسعد طلس: الحياة الاجتماعية في القرنين الثالث والرابع الهجريين ٨٨ مجلة المجمع العلمي العراقي- ١٩٥٢م.

سعادة أو شقاء وكان هذا اليوم فرصة للهو والطرب وسرور الناس في مرو فكانوا يتبادلون الزيارات[١].

هكذا ظل آل المدينة يحتفلون بهذه المواسم والأعياد بخروجهم إلى المتنزهات والبساتين ولبس الملابس الجديدة، وإيقاد النار والشموع والغناء والرقص وتبادل الهدايا والتحف[٢].

ج-أعياد أهل الذمة

كما كان لأهل الذمة من اليهود والنصارى أعيادهم الكثيرة التي يحتفلون بها وقد شاركهم المسلمون فرحتهم، وقدموا لهم التهنئة بهذه الأعياد[٣]. وكان النصارى يحتفلون بعيد الميلاد ويسمونه (عيد البشارة)[٤] كما احتفل النصارى بعيد الشمع، وأول إدخال المسيح إلى الهيكل وعيد الخمسة وأربعين شهيدًا واحتفلوا أيضًا بعيد الفصح وهو من أهم أعيادهم وهو يوم صيامهم الأكبر ويستمر هذا العيد سبعة أيام[٥].

أما أعياد اليهود التي كانوا يحتفلون بها فمنها عيد المظال، وعيد عرابا، وعيد الجمع، وعيد الصوم العظيم ويسمونه (صوماريا) ويستمر خمسًا وعشرين ساعة[٦] وعيد رأس هيشا وهو عيد عنف وحرية[٧].

---

(١) البيهقي: تاريخ البيهقي ٤٧١.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٤٧.

(٣) د/ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ٤/ ٦٢٧.

(٤) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ١٢١ ترجمة حسن حبشي.

(٥) نريمان عبد الكريم: معاملة أهل الذمة في الدولة الإسلامية ١٦٤ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٦م.

(٦) الثعالبي: ثمار القلوب ٥٠٩.

(٧) نريمان: المرجع السابق ذكره ١٦٠.

وهكذا احتفل أهل الذمة بأعيادهم في حرية تامة في ظل الحكم السلجوقي كما شاركهم المسلمون احتفالهم.

ثم ننتقل بالحديث عن مجالس الطرب والغناء والشراب حيث حرص سلاطين السلاجقة على عقد هذه المجالس وخاصة الغناء والشراب، وتأنقوا في تجميلها حتى صارت مضرب المثل في الروعة والجمال. وقد انتشر الغناء في مرو خلال العصر السلجوقي لكثرة الجواري المدربات على الغناء مما جعل سلاطين السلاجقة وكبار رجال الدولة يولعون بالشراب وسماع المغنيات[١].

وصناعة الغناء هي تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع للأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع كل صوت منها توقيعًا عند قطعه، فيكون نغمة ثم تؤلف هذه النغم بعضها مع بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها بسبب هذا التناسب وما يحدث عنه من تآلف بين هذه الأصوات[٢] وتعددت الآلات الوترية[٣] التي تعزف بالقوس والربابة والناي والصفارة والزمارة والبوق والدفوف والقانون والطبل والطنبور والأرغانون أو الأرغن والدولاب وهو الأرغن الكبير بخلاف الأرغن الصغير[٤].

وعلى العموم راج سوق الغناء في مرو رواجًا كبيرًا؛ نتيجة لتشجيع سلاطين السلاجقة له[٥] ومما يؤكد ذلك ولع السلطان سنجر بالغناء فكان شغوفًا به شغفًا كبيرًا حتى إنه كان يختار كبار المغنيين، والعازفين لمجالسه

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٨٤.

(٢) د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٧٠.

(٣) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ٢٤١.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ٤٤٤.

(٥) ابن الجوزي: المرجع السابق ذكره ٢٤١.

الغنائية؛ ومن ثم أصبحت مرو في عهده مجمع الأنس ومحافل السرور[١] ولا شك أن الغناء صار ضرورة من ضرورات الحياة في مرو عند سلاطين السلاجقة وكبار رجال الدولة، ولا يعيشون إلا به وذلك لما له من تأثير في إنعاش نفوسهم[٢] وكان للمغنيين ترتيب خاص في الجلوس في المجالس الغنائية تبعًا لمقدرتهم الغنائية وإجادتهم له فقد شملت الطبقة الأولى كبار المغنيين والطبقة الثانية ضمت من هم أقل مستوى من الطبقة الأولى، أما الطبقة الثالثة فقد ضمت أصحاب المعازف والطنابير[٣].

ولم تقتصر المجالس الغنائية على المطربين بل حفلت بكثير من الندماء وكان لكل نديم رتبة ومقام، إذ خصصت أماكن لجلوس بعضهم، وأماكن لوقوف البعض الآخر، وكان هؤلاء الندماء يشاركون السلطان لهوه ومرحه فلا تتم هذه المجالس إلا بهم[٤]. ومن الشروط التي كان يجب أن تتوفر في النديم أن يكون أديبًا ملمًا بعلوم اللغة وفنون الموسيقى والغناء بجانب الشمائل الخلقية الأخرى، وأن يكون على قدر كبير من الثقافة والهيبة[٥].

وقد حرص سلاطين السلاجقة على اتخاذ الندماء؛ ليتحدثوا إليهم دون حرج أو تحفظ[٦] وكان ندماء السلطان من غير أصحاب المناصب السياسية حتى لا يتطاولون على الناس وينالهم الأذى منهم لما لهم من مكانة عظيمة لدى

---

(١) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٤٤٤- ٤٤٥.

(٢) فايد العمروسي: الجواري والمغنيات ٢١- ٢٤. دار المعارف القاهرة ١٩٦١.

(٣) بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ٢٣٠- ٢٣١.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ٤٤٤.

(٥) الأصفهاني: الأغاني ٢/ ٣٩٠.

(٦) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٦٢.

السلطان[١] وكانوا يتقاضون رواتب شهرية يخصصها لهم السلطان نظير ما يقومون به تجاهه[٢] وكان من أشهر ندماء السلطان سنجر الأمير علي الجتري الذي استطاع بسبب ظُرفه ومنادمته للسلطان أن ينهي الخصومة بين السلطان وجوهر الخادم[٣] ولا شك أن هذه المجالس كانت تعقد للتسلية والترفيه والاستمتاع بكل ضروب اللهو والشهوات وإلى جانب مجالس الغناء والشراب كانت هناك المجالس الاجتماعية التي تضم العلماء والأدباء والشعراء والفقهاء للمناظرة فيما بينهم أو للمناقشة في أمور الدين والدنيا، ولم تخلُ هذه المجالس من النوادر والقصص الجميلة والحكم والفكاهات[٤] وقد أخذت هذه المجالس الأدبية مظهر اجتماعي حيث كان عامة الناس تلتف حولها للمشاهدة والاستمتاع وكان لهذه المنتديات الأدبية فضل كبير على الأدب ومباراة في تهذيبه وتجديده[٥] هكذا أصبح الشعراء والأدباء أداة من أدوات الزينة وطرفة جميلة تحلى بها الدور والقصور[٦].

أما مجالس الوعظ والقصص: فقد انتشرت مجالس الوعظ والقصص في مرو خلال العصر السلجوقي وتعددت موضوعاتها وأهدافها فكان الواعظ يقوم مقام المدرس ويحضر حلقته جميع أفراد المجتمع دون تمييز فيشرح لهم المسائل الشرعية ويجيب عن الأسئلة التي توجه إليه وقامت مجالس الوعظ على

---

(١) نظام الملك: سياست نامه ١٢٧.

(٢) نظام الملك: سياست نامه ١٢٧.

(٣) خواندمير: دستور الوزراء ٢٨٤.

(٤) نظام الملك: سياست نامه ١٢٧، الراوندي: راحة الصدور ٥٦٤، محمد محمود إدريس: تاريخ العراق والمشرق ٢٤٧.

(٥) أحمد أمين: فجر الإسلام ١٨٩.

(٦) أحمد أمين: ظهر الإسلام ١/ ١٥٣.

شرح وتفسير القرآن والسُّنَّة[١] كما شارك الوعاظ في مرو في الخلاف القائم بين الفِرق والمذاهب الدينية؛ فقام على رأس كل مذهب عدد من الوعاظ ينشرون تعاليمه ومبادئه وسط مريديه من الناس[٢] وكثرت عدد المجالس الخاصة بأهل السُّنَّة وشارك سلاطين السلاجقة في عقد هذه المجالس التي تبحث في المسائل المذهبية وكان يحضرها جميع السكان على اختلاف مستواهم الثقافي[٣].

ومن أشهر وعَّاظ مرو في ذلك العصر أردشير بن منصور أبو الحسن العبادي الواعظ الأستاذ كان أصله من مرو وكان يخاطب بالأمير قطب الدين قدم بغداد وجلس في النظَّامية، وحضر أبو حامد الغزالي مجلس وعظه وكان يحضر مجلسه من الرجال والنساء نحو ثلاثين ألفًا[٤]. كذلك كان علي بن زيد البيهقي أصله من قصبة السابزوار من ناحية بيهق انتقل إلى مرو بعد وفاة والده سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م وكان يعقد مجلس وعظه في المدرسة والجامع ثم انصرف عن مرو سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م[٥].

وكانت معظم مجالس الوعظ تنتهي بالثورة والفتنة التي تعم المدينة، وقد زادت خطورة هذه المجالس لتفاقم حدة العصبية المذهبية، ومن ثم فقد ساهم الوعاظ في إشعال الفتن المذهبية[٦]، وقد حث بعض العلماء كالغزالي على منع النساء من حضور مجالس الوعظ خشية أن يؤدي ذلك إلى الفتنة والانشغال بهن عما يقال بهذه المجالس؛ فلا تحقق الفائدة المرجوة منها، كما حثوا الوعاظ بالالتزام

---

(١) بدر عبد الرحمن محمد: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة ٣٣- ٣٥.

(٢) عبد الجليل الرازي النقض ٥٩٨.

(٣) عبد الجليل الرازي المرجع السابق ذكره ٥٩٨.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ٥/ ١٨٤.

(٥) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١٣/ ٢٢١- ٢٢٢.

(٦) عبد النعيم حسنين: إيران والعراق في العصر السلجوقي ١٧٢-١٧٣.

بتعاليم الدين والزهد في الملابس وعدم التكلف حتى يكونوا قدوة[١].

أما مجالس القصاص فقد قامت على رواية القصص الدينية وإرشاد الناس وحثهم على اتباع الطريق القويم؛ بذكر آيات الله وأخبار السلف الصالح بهدف التذكرة والعظة والاقتداء بهم، كما قام بعض القصاص بتفسير بعض آيات القرآن[٢]، وقد شجع سلاطين السلاجقة وكبار رجال الدولة على هذه المجالس وبصفة خاصة المجالس السنية[٣].

التسلية ووسائلها

تعددت وسائل التسلية في مرو خلال العصر السلجوقي، فكانت هواية الصيد من أهم أنواع التسلية والرياضة لسلاطين السلاجقة[٤]، فقد شُغف سلاطين السلاجقة بالصيد وهيئوا له كل ما يحتاجونه في رحلات صيدهم، وأهمها: إعداد الحيوانات والطيور الخاصة بالصيد كالكلاب والصقور المعروفة بسرعة الصيد واقتناص الفرائس[٥]، فكان السلاطين يخرجون إلى الضواحي والصحاري القريبة من المدينة للقيام بهواية الصيد، وكانوا يقومون برحلات منتظمة[٦].

وكان السلطان ملكشاه شغوفًا بالصيد، فقد بلغ ما اصطاده في رحلة واحدة مع مماليكه عشرة آلاف رأس، فأمر أن يُتصدق بما يساويها؛ وأصبح منذ

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٤٧٨-٤٧٩.

(٢) ابن أبي أصبيعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣٨.

(٣) أحمد كمال الدين حلمي: السلاجقة في التاريخ والحضارة ٢٢٣-٢٢٤.

(٤) د/ سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ١/ ٩٣.

(٥) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٩٩.

(٦) الراوندي: راحة الصدور ٣٥٩.

ذلك الوقت كلما صاد شيئًا تصدق بعدده دنانير[١]، كما ولع السلطان سنجر بالصيد ولعًا شديدًا جعله يستشير منجمه الخاص لتحديد موعد الصيد[٢].

ومن الألعاب التي انتشرت في مرو في ذلك الوقت لعبة الشطرنج، وهي من وسائل التسلية المحببة إلى العامة والخاصة، وكان سلاطين السلاجقة يجيدونها وانتشرت في مجالسهم[٣]، كما كان بعض الناس يحتفظون بالشطرنج في منازلهم لتسلية أهل البيت والضيوف، فعلى سبيل المثال كان فخر الدين مباركشاه بن الحسن المروزي المتوفى ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م له دار ضيافة فيها الكتب والشطرنج لتسلية الخاصة والعامة[٤].

وانتشر في ذلك العصر اللعب بالنرد[٥]، وهي لعبة فارسية الأصل، من الألعاب المسلية وتسمى (الكعاب) وكان الناس يقامرون في لعبها رغم تحريم الإسلام، وتنوعت وسائل التسلية في مرو وضمت الألعاب الرياضية كالرمي والفروسية[٦]، واهتم بها سلاطين السلاجقة؛ لأنها كانت من الرياضات المحببة لدى عامة الشعب وخاصتهم، وهم بذلك يشجعون رياضة أوصى الإسلام بها، كما عرفوا اللعب بالصولجة وهي ضرب الكرة على ظهر الخيل بالعصا، والكرة المستعملة في حجم البرتقالة يتقاذفها اللاعبون من فوق ظهور الخيل[٧].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٦٤.

(٢) نظامي السمرقندي: جهار مقاله ٧٠.

(٣) نظام الملك: سياست نامه ١٣٥.

(٤) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٣٢٢.

(٥) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية ١١٢.

(٦) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ٢٨٤، الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٢٧، الرواندي: راحة الصدور ٥٩٢، د/ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٨٤.

(٧) د/ عصام عبد الرءوف: تاريخ الفكر الإسلامي ١٦٩.

وفي النهاية نستطيع أن نقول: إن سلاطين السلاجقة قضوا أوقات فراغهم في الاستمتاع بالصيد والألعاب المختلفة، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على ما بلغه سلاطين السلاجقة وكبار رجال الدولة من ترف وبذخ في حياتهم اليومية بالمدينة.

الطعام

تفنن أهل مرو في صناعة الأطعمة ذات الطعم اللذيذ والطهي الجيد والألوان المتعددة[١]، ومما يؤكد ذلك ما قاله المقدسي أنه: (ليس في الدنيا مثل خبز مرو ولا نظير لهم في أقاليم العجم مثل هريستهم)[٢]، واختلفت الأطعمة في مرو وتنوعت لاختلاف العناصر السكانية فكان لكلٍ منها أطعمتها التي جاءت بها من مواطنها الأصلية إلى مرو، كما كان للاحتكاك التجاري أثره في تنوع الأطعمة في مرو.

كذلك تأنق سلاطين السلاجقة في تناول أطعمتهم وأسرفوا في إعدادها وإقامة الولائم وحفلت موائدهم بشتى أنواع الأطعمة ومختلف المشروبات، فكان السلطان ألب أرسلان يحرص على إعداد الخوان على أكمل وجه، فكان يذبح في مطبخه خمسة عشر ألف رأس لإعداد موائد الطعام وتقديمها لكل من يأتي إلى خوانه[٣]، وكان نظام الملك يرى أنه من الضروري إعداد الخوان والإنفاق عليه بكثرة؛ لأنه يعكس قدر وعظمة السلطان وما يتمتع به من سيادة[٤]، كما كان السلطان سنجر يطهي أربعين ألف رأس من الغنم سنويًّا،

---

(١) الأصطخري: المسالك والممالك ٢٦٢، د/ عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب ٣/ ٣٢٧.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٦.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٤٨-٤٩.

(٤) نظام الملك: سياست نامه ١٦٩.

فكان أفراد هذه الطبقة يسرفون في الإنفاق على طعامهم ويحرصون على تزيين موائدهم بالورود والرياحين.

وبالنسبة لطعام أهل مرو من السكان الأصليين فكان معظمه من أصول فارسية، وكان يتكون من الأرز والبيض المحلى بالسكر[١]، وكانوا يعتبرون أوسط الطعام لديهم هو الخبز بالزيت والخل[٢]، أما اللحم فيرونه أرفع الطعام[٣].

وكان من طعامهم العصيدة[٤] (هي عبارة عن دقيق يلت بالماء المغلي) والهريسة[٥] والحسية[٦] والمليل[٧] والأرزة[٨] والبهضة[٩] والبوراني[١٠] والسويق[١١] والمشوشة[١٢] والثريد[١٣] وأكل خبز الشعير والجبن والأرينين[١٤] والطين[١٥]ويطلق عليه طين الأكل، وكان يقدم في نهاية الطعام؛

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار ٣/ ٢٩٩.
(٢) وكيع: أخبار القضاة ٢٩٣، القاهرة ١٣٦٩م.
(٣) الجاحظ: البخلاء ١٨.
(٤) الجاحظ: البخلاء ١٨٢.
(٥) الجاحظ: المصدر السابق ذكره ١٨٢.
(٦) الجاحظ: المصدر السابق ذكره ١٨٢.
(٧) الجاحظ: الحيوان ١/ ٢٤٥.
(٨) الجاحظ: البخلاء ١٨٢.
(٩) الجاحظ: البخلاء ١٨٢.
(١٠) التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة ٢/ ٧٦.
(١١) ابن حوقل: صورة الأرض ٢١٣.
(١٢) الجاحظ: التاج ٢١.
(١٣) الجاحظ: البخلاء ٩٥.
(١٤) الجاحظ: المصدر السابق ذكره ٩٥.
(١٥) ابن حوقل: صورة الأرض ٢١٣.

وهو نوع من جذور النبات التي تساعد على الهضم[١].

وكان للعرب أطعمة خاصة بهم، وكانت قاصرة على التمر والحبوب واللحوم ومنتجات الألبان من سمن وزبد وجبن، ومن طعامهم الثريد (فت الخبز في مرق اللحم)[٢]، والخبز والهريسة، ومن أصناف الحلوى التي اشتهرت بها مرو الفالوذج[٣] (حلوى تصنع من الدقيق والماء والعسل) ، والفانيد[٤] (حلوى من اللوز والفستق) ، واللوزينج[٥] (حلوى من اللوز)، والخشكنامج[٦] (طعام مصنوع من الزبد والجوز والسكر والفستق)، والخشكار (يصنع من دقيق الشعير والسكر)، والخبيص[٧] (حلوى من التمر والسمن)، ونواله[٨] (قطعة مدورة من الخميرة المصنوعة من الدقيق والقمح)، والصبرزد[٩] (سكر أبيض صلب)[١٠]،كما زخرت موائدهم بشتى أنواع الفواكه التي كانت تشتهر مرو بإنتاجها.

الأزياء والملابس

تعتبر الملابس والأزياء من أهم مظاهر الترف، فهي تعكس مستوى معيشة من يرتديها وكذلك الطبقة التي ينتمي إليها، واشتهرت مرو بإنتاج أنواع

---

(١) الثعالبي: لطائف المعارف ١٣٩.
(٢) الجاحظ: البخلاء ٩٥.
(٣) الجاحظ: المصدر السابق ٩٥.
(٤) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٢٦٦.
(٥) الجاحظ: السابق ذكره ١/ ٢٦٦.
(٦) الجاحظ: البخلاء ١٣٠.
(٧) الجاحظ: رسائل الجاحظ ١/ ٢٦٦.
(٨) الثعالبي: يتيمة الدهر ٤/ ١٠٦.
(٩) الثعالبي: المصدر السابق ذكره ١٠٦.
(١٠) الثعالبي: ثمار القلوب ٣٢٠.

مختلفة من المنسوجات القطنية والحريرية والصوفية التي ذاع صيتها وعظمت شهرتها في العهد السلجوقي.

واختلفت الملابس في مور باختلاف طبقاتهم وصناعتهم وأحوالهم، فكان لكل طبقة لباس يتميزون به عن غيرهم، حتى إن الرجل تعرف صنعته من لباسه[١]؛ فملابس السلاطين السلاجقة تختلف عما يرتديه العلماء، وملابسهم تختلف عما يرتديه العامة[٢]، فكان لسلاطين السلاجقة أزياؤهم الخاصة بهم، التي تتميز بالفخامة، فقد ارتدوا أغلى الملابس الموشاة بالجواهر[٣]، فمثلًا كان السلطان ألب أرسلان يلبس قلنسوة عالية لا يقل طولها من أعلاها إلى طرف شاربه عن ذراعين[٤]، بينما كان السلطان سنجر لا يتكلف في ملبسه، فكان يلبس ثوبًا زندنجيًّا أو عتابيًّا من الحرير غير المنقوش وعليه صديري رقيق[٥].

وكان الجامدار هو المسئول عن ملابس السلطان من حيث ترتيبها وإعدادها وتجهيز ما يرتديه السلطان يوميًّا أو التي يرتديها في المناسبات[٦]، وكانت ملابس السلاطين تتكون من القلانس والعمائم، كما لبسوا الطيالس والأقبية والسراويل والجوارب[٧]، وكذلك الدراعة والجبة السوداء، وكانت ملابسهم من الحرير المزركش بألوان زاهية، ووضعوا على رءوسهم التيجان المرصعة بالجواهر[٨] حتى يظهر في أبهى صورة.

---

(١) الجهشياري: الوزراء والكتاب ٢، أحمد أمين: ضحى الإسلام ١/ ١٨٧.

(٢) صلاح حسن العبيدي: الملابس العربية ٦١.

(٣) زكي محمد حسن: الفنون الإيرانية ٢٤٨.

(٤) الراوندي: راحة الصدور ١٨٦.

(٥) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢٦٠.

(٦) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢٠٧.

(٧) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ٣٨٨.

(٨) الراوندي: المصدر السابق ذكره ٢١٧.

وبالنسبة لملابس القضاة فقد اتخذوا القلانس العظام وكذلك الطيلسان[١] كما هو الحال بالنسبة للفقهاء[٢]، وأكد المقدسي ذلك بقوله: (فإنهم يتطيلسون) أي: يلبسون الطيلسان[٣] فوق العمامة.

وكان للشرطة زي خاص بهم يميزهم عن غيرهم، حيث كان القواد يلبسون الأقبية الفارسية القصيرة، أما الجند فيلبسون سروايل ذات شرائط وتحيط أوساطهم[٤] أحزمة.

كما كان للشعراء زي خاص بهم فكانوا يرتدون الموشى والمقطعات والأردية السوداء[٥] أما الكُتَّاب فكانوا يلبسون الدراعات[٦].

ومثلما اختلفت الملابس باختلاف الطبقات فقد اختلفت أيضًا العمائم (وهي غطاء الرأس يتميز به اللباس العربي، ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: العمائم هي تيجان العرب)[٧]، فكانت عمامة العلماء والقضاة تتميز بكبر حجمها، وكان للتجار والبقالين عمائم أيضًا، وهكذا اختلفت العمائم باختلاف المكانة الاجتماعية.

أما ملابس العامة فكانت من القطن الغليظ فقد ارتدوا المدرعة المصنوعة من الصوف والسراويل البيضاء المزيلة ولبسوا الخف والنعال كما لبسوا الأزر

---

(١) الأصفهاني: الأغاني ٢/ ٢٩.
(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ٢٠.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ٣٢٣.
(٤) الثعالبي: يتمية الدهر ٣/ ٣٤٦.
(٥) أحمد أمين: ضحى الإسلام ١/ ١٢١.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٣١٤.
(٧) الطبري: مكارم الأخلاق ١٣٧.

والفوط الخاصة بالخدم[١].

كذلك كان للمتصوفة لباس (خاص) بهم، فكانوا يرتدون العباءات والأردية الزرقاء كما كانوا يرتدون المئزر[٢]، وغالبًا كانت ملابسهم من الصوف الخشن[٣]، أما ملابس النساء فكانت تغلب عليها الحشمة فكن يلبسن الخمار[٤] وهو غطاء للرأس، وكن يخرجن ملتحفات بملاءة فضفاضة تغطي كل جسدهن حتى لا يظهر منهن شيء[٥].

خلاصة المطاف: أن ملابس المسلمين في مرو في العهد السلجوقي قد تحكمت فيها ثلاثة تيارات؛ **أولها**: عربي، **وثانيها**: فراسي، **وثالثها**: وارد من أواسط آسيا الموطن الأصلي للسلاجقة[٦].

كما كان لأهل الذمة لباس (خاص) بهم؛ فقد لبست اليهود البراطل الطويلة[٧]، ولبس النصارى القلانس الطويلة بعد أن كانوا يلبسون البرانس[٨]، فكذا لعبت الملابس دورًا هامًّا وكانت مظهرًا من مظاهر الحضارة في مرو في العهد السلجوقي.

---

(١) رونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ٢٢٠.

(٢) القزويني: آثار البلاد ٣٦١.

(٣) ابن خرداذبه: المسالك والممالك ١٠٩.

(٤) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ١/ ٧٤.

(٥) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ٣٨٩.

(٦) A Survey of Persian Art from prehistork time To present p.22 38

(٧) ترتون: أهل الذمة في الإسلام ٢٠٥.

(٨) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٨٤.

المؤسسات الاجتماعية

١ - الربط

ملئت الربط في كل أجزاء مرو ولم تقتصر هذه المنشآت على العبادة، بل كانت ذات أغراض تعليمية أيضًا، ومنها على سبيل المثال رباط عبد الله بن المبارك[١]، ورباط كنزه مزار[٢]، ورباط قبر الحسين رضي الله عنه[٣]، وفي العصر السلجوقي أصبح لهذه المنشآت الصوفية طراز معماري خاص يشتمل على خلوت والجامع والمطبخ والحمام ومكان لضيافة الواردين وقد تعددت منشآت الصوفية، وكان سكانها من الصوفية يعرفون بالورع والتقوى وترجى بركتهم، ولكل رباط شيخ يسمى قطب أو شيخ الشيوخ يباشر الصوفية ويأتي بعده المريدون والإخوان وغيرهم، كما وجد أيضًا الخدم والقراء والجند[٤].

ومن ربط السلاجقة رباط شرف[٥] الذي أسسه الشيخ أبي بكر الكرامي[٦] في عهد السلطان أبي شجاع محمد بن ملكشاه سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م، والمبنى الرئيسي للرباط مربع الشكل يتقدمه مجموعة غرف منسقة يشبه في شكله

---

(١) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التميمي مولاهم أبو عبد الرحمن المروزي أحد الأئمة الأعلام، روى عن حميد الطويل وحسين المعلم وسليمان التيمي وخلق، وعنه معمر والسفيانان وفضل بن عياض وجعفر بن سليمان الضبعي ويحيى القطان والوليد بن مسلم وخلق، مات ١٨١هـ.
انظر المزيد في: تاريخ بغداد ١٠/ ١٥٢، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٧٤، حلية الأولياء ٨/ ١٦٢، خلاصة تذهيب الكمال ١٧٩.

(٢) ياقوت الحموي: المشترك وضعًا والمفترق صقعًا ١٩٩-٢٠٠.

(٣) حسن حسني عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية ٧٩.

(٤) د/ عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية ١٨٦.

(٥) د/ عبد المنعم ماجد، المرجع السابق ذكره ١٨٧.

(٦) أوقطاي أصلان، فنون الترك وعمائرهم ٢٢٣، بيروت ١٩٦٧م.

الخارجي الحصن، ومن الداخل يشبه قصرًا بالغ العظمة، كما يشتمل على مسجد له قبة وفناء تدور حوله البوائك، وقد خُرب هذا الرباط في ثورة الغاز لكن خاتون زوجة السلطان سنجر قامت بترميمه هو ورباط ماهي المجاور له[١].

وكذلك الرباط الذي يقع على نهر الزريق وقد سكنه الشيخ أبو الرجاء المومل بن مسرور الشاسي الخمركي المتوفى ٥٨٦هـ/ ١١٩١م[٢]، ومن أشهر هذه الربط أيضًا رباط أبو المعالي عبد الله بن أحمد بن حمدويه المروزي الذي بناه على نفقته الخاصة باسم أصحاب الحديث وطلابه، ومات أبو المعالي سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م[٣]، وقد كشفت هذه المنشآت الصوفية عن عظمة العمارة السلجوقية في مجال الزخرفة وعن التوازن والتناسق في التخطيط.

٢- البيمارستانات

وهي من أهم المنشآت الاجتماعية التي أسست للعلاج والتعليم[٤] معًا وكانت البيمارستانات في مرو تسير وفقًا لنظام وترتيب معين، حيث قسمت قسمان منفصلان: قسم للذكور وقسم للإناث[٥] وكل قسم يتكون من عدة قاعات لمختلف الأمراض، فقسم للعمليات وقسم للكحالة وآخر للجراحة وهكذا[٦]، وكانت القاعات فسيحة حسنة البناء وكان الماء فيها جاريًا

(١) محمد محمدي: الأدب الفارسي ٢٢٣.
(٢) السمعاني: الأنساب ٢/ ٤٥٢.
(٣) ابن الأثير، الكامل ٩/ ٣٣٤، ابن الجوزي: المنتظم ١٨/ ٤٠.
(٤) شوكت الشطي، موجز تاريخ الطب عند العرب ٩، دمشق ١٩٥٩م.
(٥) شوكت الشطي، المرجع السابق ذكره ١٠، د/ عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية ١٠٩.
(٦) عبد الله عبد الرازق، المستشفيات الإسلامية ٧٥، الأردن ١٩٨٧م.

وللبيمارستان صيدلية تسمى (شرابخانة) كما ألحق بالبيمارستان حمام عام، وكان للبيمارستان أيضًا الفراشون من الرجال والنساء للخدمة[١] وقد تعددت البيمارستانات في مرو فمنها الثابت والمحمول[٢].

كذلك كانت البيمارستانات من أهم الأماكن التي يدرس فيها[٣] الطب فكان طلبة الطب يتلقون علومهم على أساتذتهم في البيمارستان وكانت تهيأ لهم الإيوانات الخاصة المعدة والمجهزة بالآلات والكتب أحسن تجهيز، فيقعدون بين يدي معلمهم بعد أن يتفقدوا المرضى وينتهوا من علاجهم[٤]، كما ضم البيمارستان مكتبة كبيرة زخرت بالعديد من المؤلفات الطبية التي تساعد الطلبة في تشخيص الأمراض[٥].

٣- الحمامات

تحث تعاليم الإسلام على النظافة التي هي من سمات المؤمن، فيقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وانتشرت الحمامات في مرو وقراها وذلك لعدم إمكانية العامة إنشاء حمامات خاصة في منازلهم ورغبة القادرين في استثمار أموالهم بإنشاء الحمامات، لما تدره من أرباح وفيرة[٦] مما أدى إلى إنشاء العديد من الحمامات وخاصة في دندانقان[٧] وقد أكد

---

(١) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات ١٩-٢٠.

(٢) أحمد عيسى، المرجع السابق ذكره ١٠-١١.

(٣) ول ديورانت، قصة الحضارة ٢/ ١٩٠، ترجمة محمد بدران.

(٤) أحمد عيسى، تاريخ البيمارستانات في الإسلام ٣٨، عبد الله الجراري: تقدم العرب في العلوم والصناعات ٧٤.

(٥) بروان، الطب العربي ٤٧، بغداد ١٩٦٤م.

(٦) محمد عبد الستار: المدينة الإسلامية ٢٤٦، مجلة عالم المعرفة الكويت العدد ٢٨ أغسطس ١٩٨٨م.

(٧) المقدسي، أحسن التقاسيم ٣١٢، لسترانج، بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٢.

ابن خلدون أن الحمامات تكون في المجتمعات التي قطعت شوطًا كبيرًا في العمران ووجودها نوع من الترف والنعيم[١]، وقد خصصت حمامات للرجال وأخرى للنساء أو حددت أيام خاصة بالنساء[٢].

ويتألف الحمام من مدخل ثلاث أو أربع حجرات أساسية مغطاة بقباب وفي الجهة المقابلة حجرات الوقود، ويدخل إلى الحمام باب منخفض يؤدي إلى ممر ضيق يلي حجرة تسمى البيت البارد، وفيها يخلع المستحمون ملابسهم، أما في الشتاء فكان المستحم يخلع ملابسه في الحجرة الوسطى، الدافئة لقربها من القدر الساخن وكان يلاحظ في بناء الحمامات أن تصمم بحيث تتيح للمستحم أن ينتقل تدريجيًا من الجو الحار إلى الجو البارد حتى لا يصاب بأذى[٣]، كما انخفضت الحمامات عن مستوى سطح الأرض عشر أمتار، وكانت حوائطها تغطى بالقرميد الملون والرخام والمرمر، وتزين بالصور للترفيه عن المستحمين وإدخال السرور والراحة على نفوسهم[٤] والعمل الطبيعي للحمام هو التسخين بهوائه والترطيب بمائه[٥].

ومن الجدير بالذكر أن حمامات مرو لم تخل من حلاق يحلق للمترددين على الحمام وأخيرًا خضعت حمامات مرو لإشراف المحتسب فكان يشرف على نظافتها[٦].

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ٢٣٨، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦م.

(٢) منظمة العواصم والمدن الإسلامية: أسس التصميم المعماري ٤٨٠.

(٣) حسن الباشا، الآثار الإسلامية ١٦٥.

(٤) أبو صالح الألفي، الفن الإسلامي ١٥.

(٥) الشيرازي: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ٨٦.

(٦) ابن الأخوة، معالم القربة في طلب أحكام الحسبة ٥٤.

المرأة في العصر السلجوقي

تمتعت المرأة في مرو خلال العصر السلجوقي بقسط وافر من الحرية والنفوذ فقد ظهر دور المرأة على مسرح الأحداث السياسية بصورة بارزة وذلك لكثرة المواقف السياسية التي شاركت فيها وكان لها اليد الطولى، والكلمة النافذة وقد تلقبت نساء الطبقة الحاكمة خلال العصر السلجوقي باسم (خاتون)، وتعني السيدة التركية[١].

ويعد من أهم المواقف السياسية التي شاركت فيها المرأة على الإطلاق دورها في تحديد مصير الدولة السلجوقية، فكان الباعث على خروج سلجوق من موطنه الأصلي في وسط آسيا أن امرأة ملك الترك بيغو كانت تخوفه من الأمير سلجوق وتحرضه على قتله فدفعه خوفه من القتل على الرحيل إلى ديار الإسلام[٢].

واستمرت المشاركة النسائية في الشئون السياسية فكانت تركان خاتون زوجة السلطان ملكشاه تتمتع بشخصية قوية هيأت لها الظهور على الساحة السياسية في وقت ازدهار الدولة السلجوقية، وقد أخذ نشاط تركان خاتون السياسي في الظهور منذ عام ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م حين ولدت ابنًا ذكرًا من السلطان ملكشاه ورغبت في تعيينة وليًّا للعهد رغم أنه أصغر الأبناء سنًّا، فاعترض الوزير نظام الملك على رغبتها حفاظًا على تماسك الأسرة السلجوقية ومنعًا للمنازعات والحروب بين أفرادها للظفر بعرش السلطنة[٣].

---

(١) شيرين عبد النعيم حسنين، نساء شهيرات في السياسة والأدب ٤٩، الأنجلو القاهرة، ١٩٨٩م.

(٢) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ٢٣-٢٤.

Bernard Lewis Islam From The prophet Mohammed To Copture of Constanlrouple p. 69.

(٣) عبد الله رازي: تاريخ كامل إيران ٢٠٤.

غير أن تركان خاتون ظلت تـوغر صـدر زوجهـا الـسلطان ملكـشاه عـلى وزيره نظام الملك وأخذت تتحين الفرصة لعزله[١]، وقد واتتهـا الفرصـة سـنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م حين شكا شـحنه مروقـودن وهـو مـن خـواص الـسلطان المقربين من عثمان جمال الملك ابن نظام الملك حـاكم مـرو الـذي اسـتغل نفـوذ جده وقبض عليه وأودعه الـسجن زمنًـا ثـم أطلـق سراحـه فقـصد الـسلطان شاكيًا[٢] واستغلت تركان خاتون شكواه في إثارة السلطان وتحريضه على عـزل نظام الملك من الوزارة والقضاء على نفوذ أبنائه وأحفاده، وشاء القدر أن يقتـل نظام الملك على يد أحد فدائي الإسماعيلية[٣]، وربما كان لتركان خـاتون يـدًا في ذلك.

كما هيمنت أم السلطان سنجر على شئون الحكم وكان لها تـأثيرًا كبـيرًا عـلى السلطان سنجر[٤] ولها ديوان خاص لرعاية شئونها[٥]، كما كان لتركان خـاتون زوجة السلطان سنجر بصمتها على التاريخ السياسي فقد اشتركت مع زوجهـا في حربه للقرخطائيين فوقعت أسيرة لديهم سنة كاملة إلى أن افتديت بخمسمائة ألف دينار[٦].

وقد خدمت المرأة السلجوقية أهداف دولتها السياسية بإقامة علاقات الـود والتقارب مع الخلافة العباسية وذلـك عـن طريـق المـصاهرات الـسياسية مـع الخلفاء ومحاولة التأثير علـيهم عـن طريـق زوجـاتهم الـسلجوقيات بـما يحقـق

---

(١) نظام الملك: سياست نامه ٢٢٢.

(٢) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ٣٣٥-٣٣٦.

(٣) ابن إسنفديار: تاريخ طبرستان ٣١٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ١٨٤.

(٥) خواندمير: دستور الوزراء ٢٧٦.

(٦) فتحي أبو سيف: المصاهرات السياسية ٥٢٠.

أهدافهم[١] فقد تزوجت السيدة خديجة بنت جغرى بك ويطلق عليها (أرسلان خاتون) من الخليفة القائم بأمر الله، ولم تكن مجرد زوجة للخليفة، وإنما كانت أشبه بسفيرة لدولتها، وكان لها إقطاعياتها الخاصة[٢].

واستمرت المصاهرات السياسية طول العصر السلجوقي، ففي عهد السلطان ألب أرسلان تزوج الخليفة المقتدي من ابنته وتدعى (خاتون السفرية)[٣]، ولكن ظاهرة المصاهرات السياسية بدأت تختفي في عهد السلطان سنجر نظرًا لانشغال السلاجقة بمشاكلهم الداخلية من ناحية وصحوة الخلافة العباسية في عهد المقتفي بأمر الله من ناحية أخرى[٤].

وجدير بالذكر أن ظاهرة المصاهرات السياسية لم تقتصر على الخلفاء العباسيين فقط، بل امتدت داخل البيت السلجوقي نفسه كأحد مظاهر الترابط الأسري، فعندما توفي جغري بك أقدم أخيه طغرلبك على الزواج من إحدى زوجاته وهي أم سليمان[٥] وذلك للحفاظ على وحدة السلاجقة كما حدثت المصاهرات السياسية في أعقاب الحروب الداخلية بين حكام السلاجقة للتعبير عن الوئام الذي حل محل الحرب والعداء، ففي الحرب التي دارت بين سنجر وابن أخيه محمود بن محمد بن ملكشاه ورغم انتصار سنجر إلَّا أنه عمل على توحيد كلمة السلاجقة، فصالح ابن أخيه محمود وزوَّجه ابنته وتدعى (مهملك خاتون)[٦].

---

(١) على إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ٥٠٢.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ١٦٩.

(٣) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق ٤٥.

(٤) فتحي أبو سيف: المرجع السابق ذكره ٩٥.

(٥) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ٢/ ١٨٠.

(٦) عبد الله رازي: تاريخ كامل إيران ٢٠٥.

وكانت ظاهرة تعدد الزوجات من الأمور المألوفة في مرو خلال العصر السلجوقي مما أدى إلى كثرة، الأبناء من أمهات مختلفة وانعكس ذلك بطبيعة الحال على صلات الأبناء بعضهم ببعض وعلى توجيه الأحداث في الدولة السلجوقية[١].

ومن المؤكد أن الدور الهام الذي لعبته المرأة في مرو خلال العصر السلجوقي يرجع إلى الاهتمام بتعليمها فلم يخل المجتمع في مرو من السيدات المتعلمات اللاتي ساهمن في تعليم الأبناء شتى أنواع العلوم والآداب، فقد شاركت المرأة في الحياة العلمية في مرو ونبغت في العلوم المختلفة.

ومن النساء الشهيرات في علم الفقه خديجة بنت محمد بن عبد الله الواعظ الشاهجانية المتوفاة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م، وكانت مشهورة بالورع والزهد[٢]، كما كانت كريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم أم الكرام المروزية عالمة صالحة روت الصحيح عن الكشميهني، ولم تتزوج قط، وقيل: إنها بلغت المائة، ماتت سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م، وكذلك حرة بنت محمد بن منصور السمعاني، كانت امرأة صالحة كثيرة الدرس للقرآن، مداومة على أعمال الخير[٣].

كما نبغ بعضهن في الشعر مثل الشاعرة مهمستي[٤]، التي ساهمت بنصيب كبير في النشاط الأدبي في مرو خلال عصر السلطان سنجر، وقد عاشت في بلاطه ونالت الحظوة ودخلت زمرة المشاهير في الشعر في عصره[٥]، وكانت لها

---

(١) عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ١٨٤.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ١٦/ ١٠٧، الذهبي: العبر ٢/ ٣١١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٣٣.

(٤) السمعاني: الأنساب ٣/ ٣٠١.

(٥) آدم متز: الحضارة الإسلامية ٢٥٧.

الإجادة في نظم الرباعيات[١]، فقد نظمت شعرًا بالصراحة في التعبير عن عواطفها حيث كانت صراحتها لا تتفق مع طبيعة المرأة التي ترى الحياء أجمل صفاتها.

ثم نختم هذا الفصل بالحقيقة التاريخية: إن المرأة شاركت في المجتمع في مدينة مرو كأم وربَّة منزل تهيئ للرجل كافة أسباب الراحة، هكذا قامت المرأة بدور بارز في الحياة السياسية وساهمت في تشكيل الدولة السلجوقية كما ساهمت في الحياة الثقافية والاجتماعية في المدينة.

obeikandl.com

(١) علي رازي: تاريخ إيران ٣٧١.

الفهارس التاريخية

١- أسماء الخلفاء العباسيين المعاصرين للسلاجقة

- أبو جعفر عبد الله القائم بالله: ٤٢٢هـ-٤٦٧هـ/ ١٠٣١م-١٠٧٥م.
- أبو العباس أحمد المقتدي بأمر الله: ٤٦٧هـ-٤٨٧هـ/ ١٠٧٥م-١٠٩٤م.
- أبو العباس أحمد المستظهر بالله: ٤٨٧هـ-٥١٢هـ/ ١١١٨م-١١٣٥م.
- أبو منصور فضل المسترشد بالله: ٥١٢هـ-٥٢٩هـ/ ١١٣٥م-١١٣٦م.
- أبو جعفر منصور الراشد بالله: ٥٢٩هـ-٥٣٠هـ/ ١١٣٦م.
- أبو عبد الله محمد المقتفي لأمر الله: ٥٣٠هـ-٥٥٥هـ/ ١١٣٦م-١١٦٠م.

obeikandl.com

سلاجقة خراسان

- ركن الدين أبو طالب طغرلبك: ٤٣٢هـ-٤٥٥هـ/ ١٠٤٠م-١٠٦٣م.
- عضد الدين أبو شجاع ألب أرسلان: ٤٥٥هـ-٤٦٥هـ/ ١٠٦٣م-١٠٧٢م.
- ناصر الدين محمود: ٤٨٥هـ-٤٨٧هـ/ ١٠٩٢م-١٠٩٤م.
- ركن الدين أبو المظفر بركيا روق: ٤٨٧هـ-٤٩٨هـ/ ١٠٩٤م-١١٠٤م.
- غياث الدين أبو شجاع محمد: ٤٩٨هـ-٥١١هـ/ ١١٠٥م-١١١٧م.
- معز الدين أبو الحارث سنجر: ٥١١هـ-٥٢٢هـ/ ١١١٧م-١١٥٧م.

obeikandl.com